الفصل الثاني

"النزعتان الشيعية والسلفية
في تصوف محمد أحمد المهدي السوداني"
(١٢٦٠ هـ ١٨٤٤ م / ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م)

ويشمل:

- تمهيد
- سيرته ومصنفاته وأسلوبه فيها.
- النزعة الشيعية في تصوف مُحمد أحمد.
- إيقاف العمل بالمذاهب وإلغاء الطرق.
- النزعة السلفية في تصوف مُحمد أحمد.
- تعقيب.

لم تعمر "المهدية" في السودان بحساب الزمن إلا سنوات قليلة بدأت في أول شعبان ١٢٩٨ بجزيرة "أبا" وانتهت في "كَرَري" في ١٥ ربيع ثاني ١٣١٦ ومع ذلك فإنها تعد فترة كاملة من فترات تاريخ السودان فكانت منعطفاً خطيراً، إنها فترة حافلة بالأحداث الجسام غيرت حال السودان وهي جزء من كيانه المعاصر وآثارها باقية فيه حتى الآن.

والنظام الذي اختطه محمد أحمد - مهدي السودان- نظام ديني بالمعنى الشامل للإسلام فليس هناك -في رأيه- من الناحية النظرية حد فاصل بين الدين والدولة بل من الواضح أن الدين هو كل شئ، وهو يجعل النظم السياسية والإدارية مجرد أدوات يباشر بها عمله ولهذا نجده يرفض أن يكون نظامه نظام دولة بمعزل عن الدين أو بناءاً سياسياً أو أن يكون باشوية أو كسروية- أو قيصرية كما يقول، بل هو صريحٌ في أن الأمر أمر ديني وأن الدعوة دعوة دينية موجهة لبناء مجتمع منظم لأداء أغراض دينية.

ودعوة محمد أحمد السوداني كثورة دينية صوفية قد نجحت في دورها الإيجابي في معظم المجالات الاجتماعية والسياسية فقد تأثرت بدعوة ابن تيمية وابن عبد الوهاب السلفية وجسدت آراءهما التي نصت في جوهرها على العودة إلى القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، فهما الحكم الوحيد في تقرير الحكم الشرعي فلا حلال إلا ما حللاه، ولا حرام إلا ما حرماه، والحق كل الحق فيما قرراه وأثبتاه.

وحين كان القرآن والسنة هما المصدر الوحيد للسلف الصالح من هذه الأمة، والمرجع الوحيد في شئون الدين و العقيدة، حين كان الأمر كذلك، بقيت

عقيدة الأمة نقية قوية، وبقيت صفوفها متحدة متراصة، وعز شأنها دينا ودنيـــا، وقد حاول "محمد أحمد" بالفعل إقامة نظام إسلامي مستهدفاً إقامة مجتمع على نمط مجتمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين، فيه الاحتكام إلى القرآن والحديث، وتطورت حركته بالسلبية المنعزلة إلى الدور الإيجابي الحقيقي للتصـوف الذي يغير المنكر بيده لا بلسانه أو قلبه فقط.

وكما يقول:

"لقد أتاني من الحضرتين النبوية، وحضرة الأقطاب سيف وأعلمت أنـه لا ينصر على معه أحد، وكل ذلك لم أعمل فيه بشئ من نفسي ولا لغرضي وإنمـا هو من الله وإلى الله"[1]

فأقوى ما في منشورات "محمد أحمد" -مهدي السودان- دعوته الضخمـة الصادقة للجهاد والقوة حماية للحق والعدل، فالسيف في رأيه لم يصنـع للزينـة والتحف وإنما (لحماية الحق) وهو يحدثنا عن آداب الفروسية والفتـوة في زمـان الحرب والسلم، فلا يصح أن يحمل أحد سيفه مباهيا مغرورا بقوته، أو داعيـا إلى إخافة غيره من المسلمين وغير المسلمين"فلا يكون سل السيوف إلا في مقتضاه"[2]

فاعتبر "محمد أحمد" الجهاد فريضة مقدمة على الحج بالنسبة لكل مؤمـن قادر، وكان تركيزه المستمر عليه تعبيرا عن الطابع العملي الجاد لفكره وسـلوكه، وقد ربط بين العلم والعمل، مؤكدا أن العالم الذي لا يترجم علمـه إلى عمـل

---

(١) الآثار الكاملة للإمام المهدي "المجلد الأول، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، ط ١، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٩٠ م، ص ٩٥.

(٢) انظر منشورات المهدي، تحقيق الدكتور أبو سليم، بيروت، ١٩٦٩ م، ج ١، ص ٤٣، ٤٤، ٤٩ .

ينسجم معه وينفع الناس إنما يكون "كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة"[1]

وفي خطابه للعلماء الذين عارضوه يتساءل: "ماذا يغني البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحشٌ معطل! كذلك ماذا يغني عنكم أن يكون نور العلم في أفواهكم، وأجوافكم منه وحشة معطلة![2]، ويرى أن نور الدين قد صار على أيدي هؤلاء العلماء متونا وحواشي لا حياة فيها يحفظونها ويرددونها ويستخدمونها في أغراض الحكام، أما هو فقد ربط الدين بهموم المجتمع وتطلعات الناس في التحرر والحياة الكريمة، عندما واجه الفساد والظلم والاستبداد، وعلى هذا فقد انتهجت دعوته طريقة الجهاد المسلح لتحقيق أهدافها.

وحتى حين يتحدث عن التوكل والعمل، يؤكد أن من لا يتوكل على الله فقد أشرك، كما يدعو إلى التواضع عند إقبال النعمة وعدم البطر، وهو يرى أن مقام الصبر عند البلاء أقوى من مقام الشكر على النعمة لأن مقام المحبة الإلهية مرتبط بالبلاء، فالله لا يبتلي إلا أحباءه الصابرين كأيوب عليه السلام [3] (العطاء في البلاء أكبر)، وهو يفسر لنا الصلة بين الله والواصلين على أساس اتصال الدعاء والصبر على البلاء، لأن في هذه الصلة فيض الرحمن [4].

وقد أمر "محمد أحمد" بإلغاء لقب "درويش"، وهدَّد كل من يستعمله بمائة

---

(1)، (2)الآثار الكاملة، ج ١، ص ٤٣٤.

(٢) نفس المرجع السابق.

(3) منشورات المهدي، ج ١، ص ٦٩، ٧٠.

(4) راجع منشورات المهدية، ج ١، ص ٢١٨ - ١٠٠.

جلده. "لأن – والنص له– من نفذ قلبه إلى ما عند الله من الخير، وترك ما في الدنيا من الضير، لا يسمى درويشاً، وإنما يسمى عاقلاً ومدركاً وبصيراً"[1].

وبهذا الإدراك والفعل والبصيرة، كان يتخذ قراراته ويقول كلمته، كان واسع الثقافة، كثير الخبرة، وقد ظهر كل ذلك واضحاً في كتبه ومنشوراته، وفي تلك الردود الحاسمة التي كان يدافع بها عن مواقفه وتصرفاته.

فمن هو "محمد أحمد" وإلى أي حد نستطيع أن نتحدث عن النزعتين الشيعية والسلفية في فكره الصوفي.

سيرته ومصنفاته وأسلوبه فيها:

يؤرخ لنا عبد المحمود نور الدائم (ت ١٣٣٣ هـ)[2]. معاصر المهدي وقد تتلمذا معاً للشيخ القرشي بن الزين–لحياة محمد أحمد فيقول:[3] أن محمد أحمد بن عبد الله ولد ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٦٠ هـ – الثاني عشر من أغسطس ١٨٤٤ م، بجزيرة (لبب) بدنقلة بالسودان. وقد أطلق عليه والده اسم (محمد أحمد) وظل يعرف بهذا الاسم إلى أن جهر بدعوى المهدية في الثامنة والثلاثين من عمره.

---

(١) نفسه، ص ٣٦ المنشور الصادر في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ هـ .

(٢) صوفي وشاعر سوداني، ولد بقرية (أم طريقي) شمال الخرطوم في عام ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م، وتوفي ب "طابت" سنة ١٣٣٣ هـ، وله نحو من خمسة وثمانين مؤلفا شملت مختلف الدراسات من الفقه والتوحيد والنحو والصرف والحكم والإرشادات، وبعض هذه المصنفات مطبوع، والبعض الآخر مازال مخطوطاً. (راجع، الشيخ الجبلي عبد المحمود: نفحة الرياض البواسم في مناقب الأستاذ عبد المحمود نور الدائم، طـ ١ سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م).

(٣) عبد المحمود نور الدائم. " ازاهير الرياض" طـ ٣، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م.

حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، وقرأ كثيراً فى محيط العلـــوم الدينيـــة، وكان كثير النظر فيما يقرأ، وتأثر ببعض المدارس الإسلامية كمدرسة الغـــزالي، وابن عربي، وابن تيمية، وأحمد بن إدريس[1]، ومحمد بن السنوســـى[2]، وكـــان لهؤلاء أثر عظيم فى ثقافته واتجاهاته[3]

وانضم إلى طائفة الشيخ محمد شريف نور الدائم (ت ١٩٠٨ م)[4] ســـنة ١٢٧٧ هـــ، وأخذ الطريقة السمانية عليه، وبذل جهده فى خدمتـــه ومحبتـــه [5]

---

(١) هو الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي مؤسس الطريقة الادريسية المنتشرة فى السودان ومصر وبلاد الصومال واليمن، وكان صاحب مدرسة بالإضافة إلى كونه شيخ طريقة، وكان من تلاميذه السيد محمد بن على السنوسى الكبير وقد مات فى بلدة عسير باليمن سنة ١٢٥٣ هـ/ ١٨٣٧ م انظر كتاب سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدي، بيروت ١٩٧٣ م، ص ١٠٢.

(٢) عالم جزائري، مؤسس السنوسية، ولد حوالي عام ١٧٨٧ م، وتتلمذ على يد السيد أحمد بن إدريس الفاسى فى مكة، ثم عاد إلى شمال أفريقيا سنة ١٨٤٠ م، وقد أسس عدداً من الزوايا أشهرها زاوية الجغبوب، وانتشرت طريقته فى واحات الصحراء الكبرى وسلطنات إفريقيا الوسطى، ترتكز دعوته على اقتفاء أثر السلف الصالح وإرشاد إخوانه ومريديه إلى الدين القويم الصحيح وطريقه إلى ذلـــك التعليم والهداية والإرشاد.

(٣) أنظر فى هذا، عز الدين الأمين، قرية كترانج وأثرها العلمي فى الســـودان، الخرطـــوم، ١٩٧٥ م، الدكتور محمد سعيد القدال الإمام المهدي (محمد أحمد بن عبد الله)ـ مطبعـــة جامعـــة الخرطـــوم، ١٩٨٥ م ص ٣٦-٣٧.

(٤) حفيد الشيخ أحمد الطيب البشير، الذي أدخل الطريقة السمانية فى السودان، وخليفتـــه، توفـــى ١٩٠٨ م.

(٥) أظهر محمد أحمد فى فترة اتصاله بشيخه محمد شريف شغفا شديدا بالعلم وميلا طبيعيا إلى التديـــن، وولاء خالصا لشيخه، فكان يقضي الليل متعبدا لا كغيره من المريدين، وقد وصف محمد شـــريف حال تلميذه (محمد أحمد) فى قصيدة مشهورة قال فيها:

"وكم صام وكم صلى، وكم قام وكم تلا ... من الله مـــازال مدامعه تجـــرى

وقد احتل (محمد أحمد) مع مضى الوقت مكانة ممتازة فى نفس شيخه (محمد شريف)، وبلغ نفوذه عنده مبلغاً عظيماً، حتى جعله فى سنة ١٢٩٢ هـ /١٨٧٥م خليفة، ورفع له راية وأذن له بالتحول فى البلاد لإعطاء العهود وقبول المريدين.[١]

فى سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ وقع بين محمد أحمد وشيخه (محمد شريف)خلافٌ عميق تطور إلى عداء شديد، وطرد محمد أحمد من طائفة الشيخ محمد شريف بعد العلاقة الحميمة التي ربطته بشيخه نحو اثنين وعشرين سنة[٢].

وكم بوضوء الليل كبر للضحى وكم ختم القرآن فى سنة الوتر"=

=(راجع النص الكامل للقصيدة فى نعوم شقير: تاريخ وجغرافية السودان، جـ ٣ ص ٦٤٠-٦٤١.)

وكان (محمد أحمد) إذا جلس أمام شيخه محمد شريف نكّس رأسه ولم يرفع طرفه إليه إلا إذا كلمه فيرفع طرفه بأدب واحترام، كما قام بالعديد من الأعمال اليدوية حتى الوضيع منها فى سعيه لإظهار المزيد من الذل تقربا لشيخه، وقد ذكرها شيخه فى قصيدته سالفة الذكر قائلا:

"أقام لدينا خادما كل خدمة تعز على أهل التواضع فى الكبر

كطحن وعوس واحتطاب وغيرها ويعطى عطا من لا يخاف من الفقر"

[١] نعوم شقير، تاريخ وجغرافية السودان، جـ ٣، ص ١١٥.

[٢] يزعم أتباع محمد أحمد أن الخلاف يرجع إلى غيرة محمد شريف من المكانة التى وصل إليها تلميذه (محمد أحمد)، وولاء الناس له وتوقيرهم إياه فى حين يزعم محمد شريف أن محمد أحمد قد أفصح له عن مهديته، وأنه طرده بعد أن فشلت محاولاته عن إثنائه عنها.

(راجع نعوم شقير، جـ ٣ ص ١١٦- ١١٨)

و مهما كان الأمر فإن واقعة طرد محمد أحمد من حلقة الشيخ محمد شريف كانت أثر حفل أقامه الشيخ محمد شريف بمناسبة ختان أولاده وجمع فيه خلقا كثيرا، وقد أخذ محمد أحمد عليه ذلك لكونه دليلا على انشغاله بالظاهر، كما أنكر عليه إجازة الرقص والطرب واجتماع الرجال والنساء فى ذلك، وأعلن أن ذلك بدعة وفساد حتى وإن كان صاحبه شيخ طريقة.

وواصل محمد أحمد تبعيته للطريقة السمانية بفضل شيخ آخر هو القرشي ابن الزين مما زاد مسألة خلافه مع أستاذه (محمد شريف) تعقيدا، فقد كانت بين الشيخ القرشي والشيخ محمد شريف منافسة على زعامة الطريقة السمانية، وقد عزز القرشي ذلك بأن زوج (محمد أحمد) ابنته وهيأ ذهنه لفكرة المهدية[1]

وهذه التجربة الصوفية كالتي عاشها (محمد أحمد) امتد أثرها في حياته فهي التي أعطت، شخصيته ثقلها التاريخي، وانعكس الفكر الصوفي جليا في كل كتاباته وفي منحاه الفكري، وأعطته التجربة الصوفية خبرة بالبلاد اكتسبها من أسفاره المتعددة، وهذا التحول، الذي أخرجه من محيط "التعبد" المنعزل إلى الاحتكاك المباشر بالحياة[2].

وفي أول شعبان ١٢٩٨ هـ أخطر محمد أحمد أصحابه بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) باشر تنصيبه مهديا، وأنه كلف بالدعوة إلى مهديته، وتوفي ضحى يوم الاثنين، لثمان خلت من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ - الثاني والعشرين من يونيو سنة ١٨٨٥ م.

وقد ترك (محمد أحمد) مجموعة من المؤلفات تصنف فيما يلي:

أولا: المراسلات، وأهمها:

١- الخطاب، وهو مكتوب موجه إلى الأفراد وصغار الأمراء، وتتضمن الخطابات حصيلة عظيمة من المعلومات ذات الطابع التاريخي والتنظيمي.

---

(١) الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم: الحركة الفكرية في المهدية، دار الجيل بيروت، ط٢، ١٩٨١ م ص ١٦.

(٢) محمد بن عبد المجيد بن محمد السراج: شقائق النعمان في حياة المهدي ووقائع السودان، القاهرة، سنة ١٣٦٦ هـ، ص ٩٧.

٢- الرسالة، وتمثل خير مصدر لعلاقات محمد أحمد برجال المجتمع وفئاته.

٣- المنشور، ويختص بأسس الدعوة، ومراميها.

ثانيا : أدبيات دينية، وهى قطع تتناول قضايا دينية عامة لا يخص بها أنصار محمد أحمد وحدهم، ومثالها منشور الصلاة، ومنشور حياة الدين الكبرى، ومنشور الصيام، وقطع كتبها حول بعض الآيات والأحاديث.

ثالثا: الأدعية والرواتب، والدعاء مطلب مهم عند محمد أحمد، وغايته دينية روحية، إذ هو تقرب إلى الله وعبادة، وقد كتب محمد أحمد المهدي السوداني دعاءه بعناية ترتفع إلى هذه المسئولية، متوخيا سمو المقصد وجمال الأسلوب، ويشتمل راتبه على آيات من القرآن منتقاة ومجموعة من الأدعية، ويتضح منه أثر الصوفية العميق فى فكر محمد أحمد الصوفي.

رابعا: الخطب، واقتصرت على الناحية الوعظية فى موضوعات كالجهاد والزهد والتقوى والعمل للآخرة والصوم، وهى فى مجملها تصب فى التوجيه المعنوي والتربوي لأتباعه[1]

---

[1] وقد قام الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم بتحقيق ونشر هذه الأعمال، ظهر له كتاب "منشورات المهدية" ببيروت ١٩٦٩ م الذي حقق فيه عددا من منشورات المهدي وبعض رسائل خليفته، وكتب له مقدمة إضافية أثار فيها كثيرا من القضايا عن حركة المهدية والنظرة الإسلامية لمفهوم الخلافة والإمامة والهجرة.

* ونشر مخطوط إسماعيل عبد القادر الكردان: "سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي" بيروت ١٩٧٣ م.

* وكتب أيضا عن "الحركة الفكرية فى المهدية"، الخرطوم ١٩٧٠ م.

* وله كذلك "المصادر الأولية لفترة المهدية"، المؤتمر الثاني شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، من السابع إلى الثامن عشر ديسمبر ١٩٧٠ م.

وجاء أسلوبه فى مصنفاته تقليديا، يرتفع فى أحسن حالاته إلى اللغة الفصحى، ويترل أحيانا إلى خليط من الفصحى والعامية، وهو يمتاز بالإيجابية والمعالجة المباشرة وعدم الاحتفال بالزينة والبهرجه والتكلف في بناء الكلام، وفي كلامه قوة وحرارة تنبعان عن إيمانه العميق، وقد أفادنا الدكتور حسين مؤنس[1] بأنه يضع محمد أحمد فى الصف الأول من كتاب العربية فى أواخر القرن الماضي، وأنه يمتاز على كتاب عصره فى العالم العربي بحس أدبي واضح، ويصفه أحد المستشرقين قائلا: "لاشك أن هذا الرجل قد أوتى أقوى رأس و أصفى بصيرة ذهنية، ويضيف قائلا بأن شكله ليس فيه ما يثير إلا عندما يبدأ فى الوعظ، وعندها يدرك المرء حقا القوة الكامنة فيه، والتي كانت تدفع بالناس لطاعته، فقد كان يحرك مشاعرهم بكلمات صادقة سريعة[2].

ويكثر محمد أحمد الاقتباس من القرآن والحديث، وكان كثير النظر فى القرآن متأملا فيما يقرأ، وقد كتب رسائل كاملة تعليقا على بعض الآيات، تابع فيها طريقة أهل الباطن فى كونه يؤول الآيات تأويلا يناسب أهدافه.

ومن ذلك تفسيره (الصراط المستقيم) بأنه الصبر على الشدائد، (وإياك نعبد) بأنه قطع الرياء من أصله. ومنه تعليقه على قوله تعالى: (لا إكراه فى الدين) إذ يذهب إلى أن هذه الآية منسوخة فى الظاهر بآية الجهاد وإنها ثابتة فى الباطن، فكان يكره الناس على الانصياع له، وقد كفر المخالفين له، ويفسر الفتنه فى قوله

وقام أخيرا بنشر "الآثار الكاملة للإمام المهدي"، ظهر الجزء الأول منها ١٩٩٠ م عن دار جامعة الخرطوم للنشر.

[1] حوليات كلية آداب إبراهيم باشا، المجلد الثاني، العدد الثاني، ص ١٤٤.

[2] Wingate, F.R. Mahdism and the angle Eegyptian Sudan,London, 1968 P.13.

تعالى: { **الفتنة أشد من القتل**} بأنها الكفر، وقال عن {**اليوم أكملت لكم دينكم**} أن فيه الدليل على أن جميع الأحكام تؤخذ من الكتاب لا من فقه ولا من غيره[1].

والآن إلى أي حد نستطيع أن نتحدث عن هاتين النزعتين-الشيعية والسلفية-في تصوف محمد أحمد (مهدى السودان)؟

احتلت فكرة "المهدي المنتظر" حيزا واسعا في التراث الإسلامي، والفكرة أساسا شيعية ولكنها انتشرت على امتداد التاريخ الإسلامي رغم عدم وجود نص قرآني صريح عن المهدي، ورغم أن الأحاديث النبوية عنه على كثرتها لم ترد في مصادر الأحاديث المتشددة مثل مسلم والبخاري، وتغلغلت هذه الفكرة في التراث الصوفي حتى غدت الصوفية- على حد تعبير ابن خلدون- مشبعة بالنظرات الشيعية التي دخلت عميقا في أفكارهم الدينية[2].

وفكرة "المهدية " باختصار هي أن الله يرسل في آخر الزمان رجلا يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، وأنه يقيم الدين حنيفا، ثم يأتي بعده الدجال، ثم يأتي عيسى بن مريم، وتنتهي الدنيا[3]

---

(1) أنظر ذلك في باب التفاسير في مجالس الطاهر التاتاى، مخطوط بدار الوثائق المركزية بالخرطوم، وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم توشكى (النجرسى) رسالة دكتوراه (مخطوط) جامعة الخرطوم ١٩٤٤ ص ٣٩٨-٤٠٤.

(2)،(3) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، بيروت ١٩٦٧ م، ص ٥٥٥-٥٧٥ وقد أورد ابن خلدون جملة كبيرة من هذه الأحاديث وشكك في صحتها، وقال في نهايتها: "ونلاحظ أن ابن خلدون سماه (الفاطمي)، نظرا إلى أن الفواطم، أي الشيعة هم أسبق الفرق إلى الفكرة وأكثرهم حماسا لها.

هذه باختصار الفكرة، ولكن هناك اختلافات-بين مصدقيها- فى التفاصيل كمكان الظهور أو زمانه، وفى صفاته وأفعاله، فقد ذهبت الفرق الإسلامية فى "المهدية" مذاهب شتي وبالتالي تعددت صور المهدية وتباينت شروطها وأهدافها، من ذلك أن بعضهم قال أن المهدي يظهر بمكة، وحدد بعضهم الموضع بما بين الركن والمقام، بينما قال البعض أنه يظهر بالمشرق، بهذا الإطلاق، وزعم آخرون أنه يأتي من ما وراء النهر ويزحف إلى مكة، ثم أشاع المغاربة أن ظهوره بالمغرب، وكان هذا التباين فى التصور لأن هذه الفرق كانت تتصور المهدي أو تحكم به حسب ظروفها المحلية.

ومن الناحيتين الاجتماعية والسياسية تعتبر "المهدية" مظهر من مظاهر المعارضة للنظم القائمة، تشتد كلما اشتد الظلم والاضطهاد، وكانت دائما شعار المضطهدين والمغلوبين على أمرهم.

ومن الغريب أن أكبر المهديين الذين عرفهم تاريخ الإسلام ظهروا فى إفريقية كأنما فى طبيعة الأفارقة نزوع تطبيعي إلى التعلق بالشخصيات الروحية الغامضة[1] فقد عرف تاريخ إفريقية الإسلامية أكبر ثلاثة مهديين عرفهم تاريخ الإسلام، وأولهم عبيد الله المهدي، أول خلفاء الفاطميين فى المغرب، وثانيهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين وواضع أساس دولتهم، وثالثهم محمد أحمد بن السيد عبد الله- مهدى السودان- موضوع هذه الدراسة.

وما من قائل بدعوة مهدية إلا نجده يلتفت إلى سيرة الرسول(صلى الله عليه وسلم) وتسير حركته فى نفس الاتجاه من تمهيد طويل يتكون خلاله الأنصار المختارون،إلى الهجرة إلى مكان بعيد، إلى تنظيم الجماعة تنظيما قريبا من تنظيم

---

[1] الدكتور حسين مؤنس: وثائق عن مهدى السودان، ص ١٤٠.

الرسول لجماعته فى المدينة، ثم يكون بعد ذلك حتما القيام بـــالغزوات لتأســيس الدولة، وهذا ما تؤكده دراسة ما بين أيدينا من الوثائق عن محمد أحمد مـــــهدى السودان.

ويجمع محمد أحمد بين الشيعية المتطرفة والسلفية، وهذا أمر غريب، لأنـه فى الوقت الذي آمن فيه بفكرة ونظرية الإمام المعصوم، نراه سلفيا متشـــددا ينفـذ تعاليم السلفية فى القصاص والسرقة و الزنا والحدود الشرعية عامة، ويبطل زيـارة القبور والأضرحة والتوسلات وذلك على أساس من تعاليم الوهابية السلفية الـــتي كان قد تأثر بها تأثرا شديدا.

النزعة الشيعية فى تصوف محمد أحمد:

يتعرض محمد أحمد إلى مناقشة علامات "المهدية" وقد عالج أمرها بإســهاب فى حضرة "التنصيب" ومنشور الدعوة، فيعلن أن سيد الوجود صلـــى الله عليـه وسلم أخبره بأنه المهدي المنتظر، وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه مـــرارا علـى كرسيه بعد أن استخلفه نيابة عنه، وأن الخلفاء الأربعة "أبو بكر وعمر وعثمـــان وعلى "حضروا" "مشهد" تنصيبه مهديا، وكذلك الخضر عليه السلام والأقطـاب والأولياء من لدن آدم، حتى يومنا هذا، شهدوا هذا الحفل.

يقـــــــــــــــــــــــــــــــول

" من العبد المفتقر إلى الله .. محمد المهدي ابن عبد الله إلى أحبابـــه فى الله المؤمنين بالله وكتابه.. أما بعد.. كما أراد الله فى أزله وقضائه، تفضل على عبـده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله، وأخبرني سيد الوجود صلـــى الله عليه وسلم بأني المهدي المنتظر، وخلفني بالجلوس على كرسيه مرارا بحضرة الخلفاء

الأربعة، والأقطاب، والخضر عليه السلام، وأيدني تعالى بالملائكة المقربين، وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا"[1]

وهو يذهب إلى أن "المهدية" لا يكون لها توقيت معين أو مكان خاص تظهر فيه، وأنها لا تكون بأوصاف مقننه، لأن الأخذ بهذه العلامات يعني تقييد قدرة الله، وهو في هذا يتبع ابن عربي وابن إدريس، وفي هذا يقول:[2]

" .. وحيث أن الأمر لله والمهدية أرادها الله لعبده الحقير الذليل محمد المهدي بن عبد الله فيجب التصديق بذلك لإرادة الله. وقد أجمع الخلف والسلف على تفويض العلم لله .. فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين، بل يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده علم الكتاب قال تعالى: **{ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء}**[3] **{وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}**[4] **{ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}**[5] لا سيما وقد قال الشيخ محي الدين بن العربي في تفسيره على القرآن العظيم " وعلم المهدي كعلم الساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله.." وقال الشيخ أحمد بن إدريس: "كذبت في المهدي أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله، ثم قال: يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها".

---

(1) الآثار الكاملة، جـ١، ص ١٣٥.

(2) نفس المصدر، جـ١، ص ١٣٦-١٣٧.

(3) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

(4) سورة الأنعام، الآية ٥٩

(5) سورة آل عمران، الآية ٧٤

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فقد حاول محمد أحمد أن يوفق بين سيرته ومسلكه من جهة، وبين ما هو معروف عن "المهدي المنتظر" كما تصوره المصادر، وقد ذكر بعض علامات المهدي والتي ينسبها لنفسه رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، فماذا ينقصه حتى يكون مهديا؟ أنه- وكما نصت منشوراته- عالم وصالح وشريف النسب ينتمي إلى الحسن السبط، كما أنه أفرق الثنايا على خده خال، وبينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم شبه فى الاسم وشبه فى اليتم، فاسمه محمد واسم أبيه عبد الله، وقد توفى والده وهو طفل فى الخامسة، كما توفيت أمه وهو فى الحادية عشرة، استمع إليه يقول:[1]

".. ثم أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل على المهدية علامة وهى الخال على خدي الأيمن، وكذلك جعل لي علامة أخرى.. تخرج راية من نور وتكون معي فى حالة الحرب. يحملها عزرائيل عليه السلام. فيثبت بها أصحابي وينزل الرعب فى قلوب أعدائي فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله.وليكن معلومكم أنى من نسل رسول الله، فأبى حسنى من جهة أبيه وأمه، وأمي كذلك من جهة أمها، وأبوها عباسي، والعلم لله أن لى نسبا إلى الحسين"

أضف إلى ذلك أن فكرة "المهدي المنتظر" قد وجدت رواجا فى السودان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وبات الكثيرون ينتظرون ظهور المهدي، وكان من الأسباب الداعية إلى ذلك، الظلم الذي حاق بالناس، وتوافق ذلك مع قرب كمال القرن الهجري الثالث عشر فهيأ لفكرة إمام القرن الذي قيل

---

[1] الآثار الكاملة، جـ١، ص ١٣٦.

أنه يظهر فى آخر كل قرن هجري[1].

ويمضى محمد أحمد فيؤكد فى دعواه أنه مأمور بالهجرة: "ولما حصل يا أحبابي من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى، أمرني سيد الوجود بالهجرة إلى "ماسة" بجبل قدير، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمرا عاما، والهجرة المذكورة بالدين واجبه كتابا وسنة، قال تعالى: {**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**}[2] وقال صلى الله عليه وسلم: "**من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو شبرا من الأرض فقد استوجب الجنة وكان رفيق أبيه خليل الله إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام**"[3]

ويصل محمد أحمد إلى أخطر ما فى دعواه حين يحكم بلسان النبي صلى الله عليه وسلم خطأ، بأن من شك فى مهديته فقد كفر، فهو يجعل الإيمان بالمهدية ركنا من أركان الإيمان فى الإسلام، ويؤكد أنه ليس مخطئا أو مستغرقا فى جذبات السكر حين يزعم هذا، يقول:[4]

---

[1] أنظر هذا فى نعوم شقير: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، القاهرة ١٩٠٣ م، جـ٣، ص ٧٢. Theobold, A.B. : The Mahdia (London 1959) P.29. والشاطر بصيلى عبد الجليل: معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى، القاهرة ١٩٥٥، ص ١٦٤ وما بعدها.

Holt, P.M. Amodern history of the Sudan from, the Funj Sultanate to the present day (London 1961) P. 79.

[2] سورة الأنفال، الآية ٢٤.

[3] الآثار الكاملة، جـ١، ص ١٣٦.

[4] نفس المصدر، جـ١، ص ١٣٧، ١٤١-١٤٣.

" .. وقد أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم: بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله- كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات. وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدية. فقد أخبرني به سيد الوجود يقظة فى حال الصحة خاليا من الموانع الشرعية، لا بنوم، ولا بجذب، ولا سكر، و لا جنون، بل متصفا بصفات العقل أقفو أثر رسول الله بالأمر فيما أمر به، والنهى عما نهى عنه".

ولا شك أن فى هذا الاتجاه أثرا شيعيا إسماعيليا، يتفق تمام الاتفاق مع اتجاه نظرية المهدية الغالية التي تثبت الدعوى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وتحكم بلسانه خطأ، بأن من شك فى هذه المهدية فقد كفر.

وقد بدأ محمد أحمد دعوته هذه سرا مع أصدقائه وتلاميذه الكثيرين، فلما هاجمه أستاذه محمد شريف واستعدى عليه أولى الأمر جاهر بدعوته وأعلنها حربا حتى أيده فى دعوته من لم يؤمن بفكرة المهدية فى وقتها، وهذا ما نلاحظه فى قول أحد شيوخ القبائل:

" نبايعك على المهدية وإن لم تكن مهديا، ونبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها"[1]

وجاءه الناس من كل مكان يبايعونه، وكان نص المبايعة " الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم، أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله، وبايعناك على توحيد الله وألا نشرك به أحد .. بايعناك على زهد الدنيا

---

[1] أنظر ذلك فى: إبراهيم فوزى، السودان بين يدى غوردن وكتشنر، القاهرة ١٣١٩هـ، ص ٨٥، جغرافية وتاريخ السودان، جـ١ ص ٩٥، جورجى زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ٢ ص ٢٨٣.

وتركها والرضا بما عند الله والدار الآخرة وعلى ألآ نفر من الجهاد[1].

ويفسر لنا محمد أحمد أسس مهديته بقوله أنها تجمع بين أصول الصوفية. ويحددها بستة- وأصول المهدية ويحددها بستة أيضا، أما الأولى التي يأخذها من الصوفية فهي: الذل، والانكسار، وقلة الطعام، وقلة الشراب، والصبر، وزيارة السادات، وأما الستة التي جاءته مع المهدية فهي:

الحرب والحزم والعزم والتوكل على الله، والاعتماد عليه تعالى، واتفاق القول[2].

والفكرة من وراء هذا هي القول بأن المهدية أخذت أسس الطرق وأضافت إليها أسسها الذاتية فأصبحت أعلى وأوسع منها، وهذا يتمشى مع فكرته في إلغاء الطرق والمذاهب فيما بعد، أي أن المهدية- في رأيه- أضافت إلى صفات الصوفية السلبية صفات القيادة والزعامة الإيجابية- وبهذا ينتقل محمد أحمد إلى الدعاة العاملين، وهذا هو التطور الحاسم في تاريخه وتاريخ السودان أيضا.

وقد كان لمحيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) تأثيره الكبير في تصوف محمد أحمد، مهدى السودان، فقد كانت كتبه ومؤلفاته من أكثر الكتب رواجا وانتشارا في السودان، وكانت "الفتوحات المكية" من أشد هذه الكتب تأثيرا[3]

---

[1] Slatin, R.C. (Von). Fire and Sword in the Sudan (Tr, by F.R. Wingate (London, 1896, P. 119).

[2] الآثار الكاملة، جـ١، ص ٧٨.

[3] ذكر محمد أحمد ابن عربي وكتابيه "الفتوحات المكية" و "تفسيره على القرآن العظيم"، أكثر من مرة في مصنفاته، والمتأمل للمشهد الذى قصة علينا محمد أحمد والذى تحدث فيه عن تنصيب النبي صلى الله عليه وسلم إياه مهديا وحضره الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام وأعيان سادات الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في السودان في ذلك الوقت، ينتهي إلى أن محمد أحمد اطلع بالفعل على كتابات ابن عربي، وخاصة الفتوحات المكية، لأن الشبه واضح جدا بين المشهد

وقد ذكر ابن عربي في الجزء الثالث من هذا الكتاب:

"أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جورا وظلما فيملؤها قسطا وعدلا، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله من ولد فاطمة يشبه اسمه اسم رسول الله[1].

"وأن لهذا الخليفة ملكا يسدده من حيث لا يراه يبعد الظلم وأهله، ويقيم الدين ويدعو إلى الله بالسيف فمن أبى قتل، ومن نازعه خذل[2]. يرفع المذاهب من الأرض.. أعداؤه مقلدة العلماء لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم .. يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف بتعريف إلهي.. فشهداؤه خير الشهداء، وأمناؤه أفضل الأمناء . يعرف من الله قدر ما تحتاج إليه مرتبته لأنه خليفة مسدد يفهم منطق الحيوان، ويسرى عدله على الإنس والجان من أسرار علم وزرائه الذين استوزرهم الله له. وهم، أي الوزراء، أو الخلفاء على أقدام رجال من الصحابة قواما عاهدوا الله عليه[3] وهو أعلم الخلق بالله ولا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه أعلم بالله منه. فهو والقرآن إخوان .. كما أن السيف والمهدي إخوان[4]. والمهدي حجة الله على أهل زمانه وهي درجة

الذى تحدث عنه محمد أحمد وبين مشاهد المكاشفات التي يصفها ابن عربي في كتابه هذا خاصة ومحمد أحمد يصف المشهد بأنه "حضرة" وهو إصطلاح يكاد يكون خاصا بابن عربي.

(أنظر الآثار الكاملة، المجلد الأول، طـ١، ص ٧٧-٨١، ١٣٧، ١٤١.)

[1] الفتوحات المكية، جـ١ ص ٣٢٧.

[2] نفسه، جـ٣ ص ٣٢٧.

[3] نفسه، ص ٣٢٨

[4] نفسه، ص ٣٢٩

الأنبياء، والمهدي لا يخطئ لأنه يقفوا أثر رسول الله[1]، وما يحكم إلا بما يلقى إليه الملك من عند الله الذي بعثه إليه ليسدده فعرفنا بذلك أنه معصوم[2].

وابن عربي متبحر فى آراء الشيعة، نقل آراءهم وأقوالهم، وضمن كتابه "الفتوحات المكية" الكثير منها فى صورة صوفية، وعلى يديه تطورت فكرة "المهدية" وأخذت أبعادا جديدة لأنه مزج بينها وبين أفكار الشيعة وتصورات الصوفية وعرضها فى شكل دولة الأولياء، تقوم على القطب والأبدال والأوتاد وغيرها[3]

والشيعة لغة: هم الصحب والأتباع وفى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف هم أتباع على وبنيه[4]، ويقول الشهرستاني معرفا بهم:

الشيعة هم الذين شايعوا عليا عليه السلام على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصاية، إما جليا وإما خفيا، و اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده"[5]

والأئمة هم أركان الأرض أن تميد بأهلها.. وحجته البالغة على من فوق الأرض أو تحت الثرى.. والملائكة تدخل بيوت الأئمة وتأتيهم بالأخبار، وهم

---

(1) الفتوحات المكية، جـ٣، ٣٣٢.

(2) نفسه، ص ٣٣٥.

(3) ولابن عربى كتاب آخر سماه "عنقاء مغرب" تكلم فيه عن ختم الولاية الذى يجعله أسمى مراتب الأولياء.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣٨

(5) الملل والنحل، جـ١، ص ١٤٦ نقلا عن الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى، "علم الكلام وبعض مشكلاته"، دار الثقافه، القاهرة، ١٩٧٩ م، ص ٧٤- ٧٦.

الأئمة-معصومون من الذنوب صغيرها وكبيرها، فلا يقع منهم ذنب أصلا لا عمدا ولا نسيانا ولا سهوا ولا غير ذلك[1].

ومعروف أن علماء السنة والشيعة قد اتفقوا على وجوب قيام الإمامة، وإن اختلفوا فى كيفية قيامها، فالنظرة السنية للخلافة نظرة نابعة من الأمة التي يجب عليها اختيار أصلح الناس لقيادتها، أما النظرة الشيعية فتختلف، فهم، (الشيعة) يرون أن " إثبات الإمامة باختيار الناس هذا النزاع إنما يكون بتعيين الإمام من الله،أي بنص الشرع لطفا من الله بعباده ورحمة بهم[2]، وهم،(الشيعة)، يرون أن فعل اللطف واجب على الله تعالى- وهى فكرة انعزالية متفرعة من القول بوجوب فعل الصلاح على الله - وقد نقل الرازي عن أحد أئمتهم أنه قال:

" اعلم أن مرادنا من اللطف الأمر الذي علم تعالى من حال المكلف أنه متى وجد ذلك الأمركان حاله إلى قبول الطاعات والاحتراز عن المعاصي أقرب إذا لم يوجد ذلك الأمر"[3]

ومن ثم فإنهم كونوا القياس الذي يستدلون به على مذهبهم على هذا النحو:

قالوا بما أن فعل اللطف واجب على الله، وبما أن الإمامة لطف فإقامتها إذن واجب على الله، لأننا نحتاج إلى الإمام ليكون "لطفا" فى أداء الواجبات العقلية والاجتناب عن القبائح العقلية، وليكون حافظا للدين عن النقصان والزيادة، وهذا

---

[1] ظهور الإسلام جـ٤، ص ١١٠ الطبعة الخامسة ١٣٨٨ هـ.

[2] النظريات السياسية الاسلامية ص ١٥٠ .

[3] الفخر الرازى، كتاب الأربعين فى أصول الدين، ص ٤٢٩ طبعة حيدر آباد ١٣٥٣ هـ.

مذهب الإمامة الاثنا عشرية.

وقالوا: إن الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم لا بد من وصولها صحيحة إلى الناس بعد عهده ليحصل عليهم التكليف، فلا بد لها من حافظ يحفظها من التغيير .. ولا بد أن يكون هذا الحافظ والناقل غير جائز عليه الخطأ وإلا لكان وصول الشريعة غير متحقق. فالإمام يجب أن يكون واجب العصمة، وأن يكون أفضل الخلق كلهم، وأن يكون أعلم الأمة، وأنه لو جاز الخطأ على الإمام لثبت أن الله أمر باتباع الذنب، أو المعصية وهو غير جائز على الله[1]

وعند الشيعة، الإمام نائب عن الله، ونائب عن رسوله ونيابة الغير لا تحصل إلا بإذن ذلك الغير، فوجب ألا يثبت إلا بنص الله، ونص رسوله، فثبت أن الإمامة لا تثبت إلا بالنص[2]

لقد أخذ ابن عربي عن الشيعة هذه الأفكار والمفاهيم ونقلها محمد أحمد عنه في فترة مبكرة من التلقي والتعليم، وكان فهمه "المهدية" تجسيدا للمعنى الذي أشار إلية ابن عربي في مؤلفاته[3]، وبالرغم من أنه قد ألغى الطرق الصوفية، واعتبر كلمة درويش جريمة يعاقب قائلها بأشد العقوبة، إلا أننا سنجد أن هذا الأساس الصوفي الذي قامت عليه دعوة محمد أحمد ظل ملازما له طوال حياته، وبقى كامنا في عقله إلى آخر عمره، وكان يلجأ إليه أحيانا في محاججة أعدائه وخصومه.

---

(1) نفس المصدر، ص ١٥٠.

(2) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٦١، جـ١، ص ١٠٣، ١٤٦، محمد حسين آل كاشف الغطاء، " أهل الشيعة وأصولها" القاهرة ١٩٥٨، ط ١،ص ١٠٩ وما بعدها

(3) فهو يؤكد في منشوراته، وكما سبق، أن مهديته جاءت بأمر من الله، والأمر صادر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، وأنه معصوم، وأن من شك في كل هذا فقد كفر (الآثار الكاملة، جـ ١ ص١٣٥-١٣٨، ١٤٠-١٤٣).

إيقاف العمل بالمذهب وإلغاء الطرق:

وحيث أنه "المهدي المنتظر"، إمام القرن وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يجدد الإسلام ويرفع المذاهب والطرق، ويعود إلى الأصل، " الكتاب والسنة"، فقد أعلن محمد أحمد، مهدى السودان، إيقاف العمل بالمذاهب، حتى المذاهب الأربعة، مذاهب الأئمة مالك، وأبى حنيفة، وابن حنبل، والشافعي، وإذابة جميع الطرق الصوفية بكل طوائفها فى طريقته، وأصبح هو المرجع وعليه الاعتماد الكلى، وليس التعلق بالأئمة وشيوخ الطرق .. ورأى أن تعدد الكتب والمذاهب أدى إلى اختلاط أمر الدين على الناس وإحداث بلبلة فى عقولهم، فأمر بإحراق كل الكتب إلا الكتاب الكريم والحديث الصحيح، ووضع حظرا شديدا على النشاط الفكري، ومنع تداول الكتب إلا ما يجيزه.

وبين أيدينا نصوص كثيرة حول إلغاء الطرق وإيقاف العمل بالمذاهب:

وقد جاءت الإشارة الأولى لاتجاهه هذا فى خطابه إلى الشيخ محمد الأمين الهندي[1] اشترط عليه فيه عدم التعلق بالأئمة والاعتماد على الكتاب والسنة[2]"

وفى خطابه إلى جماعة المنه إسماعيل يأخذ عليهم احتجاجهم بما فى الكتب القديمة مع أنها منسوخة ويقول فى خطاب إلى أهالي فاس أنه يشترط العمل

---

[1] أصله من الأشراف، وقدم جده من الحجاز، تلقى علومه فى مصر والحجاز وعاد إلى السودان فى سنه ١٨٤٠ م. وعند اعلان المهدية اتصل به محمد أحمد ووافقه ثم هاجر إليه وسار معه حتى توفى بالرهد فى ٢٣ رجب ١٣٠٠ هـ / ٣٠ مايو سنة ١٨٨٣ م.

[2] الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، المرشد إلى وثائق المهدى، جامعة الخرطوم، ١٩٦٩، رقم ١١٢،٤٤.

بالكتاب والسنة فقط، وترك المذاهب وآراء الشيوخ[1] ويؤكد في خطاب إلى أحمد حمدان العركي، وهو من رجال الدين المهمين ترك الكتب القديمة والتصانيف التي أشار إليها في خطابه، ويحدد له الاعتماد على القرآن والحديث والسير المعتمدة دون غيرها[2] ،كما نجده يؤكد في خطاب إلى أحد مريديه أنه نسخ جميع الكتب من فقه وتوحيد ماعدا القرآن والحديث الصحيح،لأن جميع الكتب المذكورة مصدرها القرآن العظيم، وحيث أنه مجدد لما اندرس من السنة وتفسير القرآن على الوجه الذي جاء به، فيلزمهم الإقتداء به[3]

وقد تعرض خليفته[4] لهذا الأمر في خطاب نورد بعض فقراته لأهميته:

" .. معلوم عندكم وعند جميع أهل البصائر أن الإمام المهدي على نور من الله وتأييد من رسول الله، وموعود أنه يرفع المذاهب ويطهر الأرض من الخلاف ويعمل بالسنة حتى لا يبقى إلا الدين الخالص بحيث لو كان رسول الله موجودا لأقره على جميع أفعاله لأنه صلى الله عليه وسلم قال في حقه: يقفوا أثري لا يخطئ"

" وحيث كان الأمر كذلك فيا إخواننا تنبهوا وافتحوا عيون قلوبكم وتقفوا من جميع الطرق ونبهوا إخوانكم بذلك وتوسلوا جميعا بهذا الإمام المهدي

---

[1] نفس المصدر، رقم ٦٦٤.

[2] المرشد رقم ٨٧٥.

[3] نفسه، رقم ٧٨٩.

[4] عبد الله التعايشي، ولد سنة ١٨٤٦ م. وهو من قبيلة التعايشة في جنوب غرب دارفور، هاجر إلى الجزيرة بعد وفاة والده وهناك التقى بمحمد أحمد وصدق بدعوته واشترك معه في حروبه،، لعب دورا بارزا في "المهدية" حتى أن البعض كان يعتبره صاحب الفكرة والدعوة. وقتل في "أم دبيكرات" في ٢٤ نوفمبر عام ١٨٩٩ م.

عليه السلام فقط، واعلموا بالسنة النبوية وعضوا عليها بالنواجذ، وهى طريقة لا غيرها، وهى عمل بها، فإنكم إن أحسنتم الإقتداء به فى العمل بها لا شك أن تصلوا إلى الله"[1]

وألزم محمد أحمد، مهدي السودان، أتباعه بأن يسيروا على الوجه الذي يبغيه، وأن يأخذوا بتفاسيره ومما وضعه فى منشوراته من الآراء والتوجيهات والنظم، وقد تمكن حقيقة من أن يوجه الفكر والثقافة إلى النحو الذي أراده وأن يصبغه بصبغته الخاصة، وقد كان أثر ذلك سيئا على الفكر وصارت الكتابة مغامرة كبرى، ومما زاد الأمر استفحالا العداوة التي قامت بين محمد أحمد، مهدى السودان، وبين العلماء والهجوم القاسي عليهم وعلى معارفهم ثم محاولة وقف التيار القديم ووضع تيار جديد.

فالعلماء، فى رأيه، "ينكرون كثيرا من أمور المهدية لأنه ليس من معتقدهم الذي يظنونه ولأنه يخالف مذهبهم"[2] " إذ المهدية أمرها باطن لا يصل إلى معرفته العلماء من أهل الظاهر. فالأمر كله بإرادة الله، والأديان لا تنفع المنكر الجاحد وإظهارها إنما يكون بإرادة الله تعالى لا بتمني العباد"، "والعلماء زمانهم ولى ولكل زمان رجال"[3]

ويبين فساد قلوبهم، بينما يخرجون الحكم من أفواههم، ويقرر أنهم أفسدوا آخرتهم بدنياهم وأنهم يضللون الخلق لأغراضهم الدنيوية، يقول:

---

[1] منشورات المهدية، ص ٤٨.

[2] نفس المصدر، ص ٣٣٢.

[3] نفسه، ص ٣١٥.

ياعلماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون وتدرسون مالا تفعلون فما سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأماني وتفعلون فما سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى ما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسه.. يا علماء السوء كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع عنها رغبته"[1]

فهو يأخذ عليهم أنهم عاونوا على فرقة الناس نتيجة اختلافهم وأنهم كانوا مطية للحكام، وسكتوا عن الحق وتهاونوا فى أمور الدين وقبلوا بالأحكام الوصيفة، وأنهم انشغلوا بالدنيا ونعمها، ولما جاء هو ليقيم الإسلام الصحيح انحاز بعضهم إلى الحكومة حفاظا على وظائفهم ومقامهم الاجتماعي بدلا من أن ينضموا إليه لإقامة الدين فكان لهم دور الضال والمضلل.

فلما ثار عليه أحد العلماء وقال له:

"معلوم أن المذاهب أربعة الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، فما هو

مذهب المهدي؟ فقال: له هؤلاء الأئمة جزاهم الله، قد درجوا الناس، ووصولهم إلينا كمثل الرواية، وصلت الماء من منهل إلى منهل حتى وصلت صاحبها البحر، فجزاهم الله خيرا. فهم رجال ونحن رجال، ولو أدركونا لا تبعونا، وأن مذهبنا

---

(1) نفسه، ص ٣١٧-٣١٨، والآثار الكاملة، جـ١، ص ٤٣٤، ويلخص خليفته (عبد الله التعايشى) رأيه فى العلماء جميعا بقولته المشهورة م " مثل العالم بين أصحاب المهدى مثل الشجرة وسط الزرع، تأوى إليها الطير الذى يفسد الزرع، فلا يستريح الزراع حتى يجتثها من أصلها" (نعوم شقير، تاريخ السودان، جـ١، ص ٥٦٣).

الكتاب والسنة والتوكل على الله، وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ"[1]

وهو فى منشور آخر يؤكد هذه الدعوى ويفسرها بقوله:[2]

" لو فرضنا أن كل قبيلة حفرت ثمدة[3] لتشرب منها، واعتادت أن تشرب منها زمنا طويلا، فجاء البحر وغطاها كلها فماذا يفعلون بها؟ أيكتفون بأن يشربوا من البحر وأن يحثوا وراء ثمدهم ليشربوا منها. فأجابوه إذا بحثوا عن الثمد فلن يجدوها لأنه سيكون قد عمها البحر والنيل وصارت جزءا منه فقال لهم هكذا الحال الآن"

وبهذا اعتبر محمد أحمد نفسه هو البحر، وما كان قبله من مذاهب دينية فقهية صوفية مجرد قنوات صغيرة، وهكذا أعلن إبطال تقليد الأئمة الأربعة وتابعيهم، وأكد أنه مجتهد، وأخذ يكتب المنشورات التي تتضمن كثيرا من أحكام العبادات والمعاملات[4]

فدور العلماء فى رأيه أنهم حافظوا على الدين وخدموه حتى أوصلوه إليه، ومعنى ذلك أن دورهم ينتهي بأن يكونوا تابعين إليه ومعاونين له، وبالنسبة إلى اجتهادات رجال المذاهب فإنه يرى أنهم كانوا رجالا فى أزمانهم وأنه رجل هذا

---

(1) ابراهيم فوزى، السودان بين يدى غردون وكتشنر، ص ٩٢، جـ١ الدكتور مكى شبيكة: " "السودان عبر القرون" بيروت ١٩٦٥ م، ص ١٨١، ٢٠٠، ٢١٠، ٢٥٢، ٢٨٣.

(2) نفس المصدر السابق

(3) جمعها "ثمد" وهى حفرة يتجمع فيها الماء.

(4) راجع منشورات المهدية، طـ٢ دار الجيل بيروت ١٩٧٩ م، ص ١٨١، ٢٠٠، ٢١٠، ٢٥٢، ٢٨٣.

الزمان "هم كانوا رجالا ونحن رجال ولكل زمان حال ولكل مقام مقال" فالاجتهاد اجتهاد حتى يصل الأمر إليه ومن بعده لا يكون إلا التابع له.

إن باب الاجتهاد الذي فتح له على مصراعيه لم يفتح لغيره، وقد أصبح دور العلماء هو الإقتداء به لا الاجتهاد، هكذا طلب محمد أحمد فى كتبه صراحة، وصحيح أنه عندما أمر بترك الكتب القديمة دعا العلماء إلى العودة إلى الكتاب والسنة لاستنباط الأحكام ويكون بذلك دعاهم إلى الاجتهاد، ولكن لم يكن مأمونا لهم أن يجتهدوا أو أن يقولوا فى أمر قولا إلا إذا دخل فى حدود ضيقة لخوفهم من الوقوع فى الخطأ ولتوخى النظام من ثقافة العلماء وتوجيههم، بل من الواضح أنه حتى فى أمور القضاء العادية وأداء العبادات كان المعاونون يستفتون محمد أحمد- المهدي -قبل أن يقروا رأيا.

ونتيجة لذلك حصر محمد أحمد النشاط الفكري فى وجهة واحدة هي تمجيد المهدي والمهدية، وكان ذلك بالأخص فى مجال الشعر والتاريخ، وإلى نقل آثار المهدي والتصنيف فيها، فقد وجه (محمد أحمد) قدرا من العناية إلى الشعر لما لذلك من أثر فى النفوس وبث الحماس فى قلوب الأتباع والرهبة فى قلوب الأعداء، وليس بين أدوات الفن ما هو أسرع تأثيرا فى النفوس وأوسع سريانا بين الناس من الشعر، وخير الشعر عنده ما كان يثير الحماس، وما يحمل الموعظة الحسنة، أي أن الشعر عنده يرتبط بالجهاد من جهة وبالتربية الدينية من جهة أخرى.

وبالنسبة للتاريخ فقد تحمس له أتباع محمد أحمد وركزوا على سيرة المهدي وانتصارات المهدية.

وبالاتجاه الذي اختطه محمد أحمد إزاء الطرق الصوفية والعلماء ومجمل التراث- وجاراه فيه خليفته، وبصرامة أكثر- أعطى لنفسه الحرية في التشريع ووضع الأنظمة، وأجاز لنفسه أن يعمل بمعزل عن التراث الذي تركه المسلمون، ماعدا القرآن والحديث، ولكن ما هو البديل للتراث وجهد العلماء؟ إنه حجية المهدي، وما هي هذه الحجية؟ إنها- وكما يزعم- التلقي المباشر عن الرسول، وفي حالات عن الله سبحانه وتعالى، الأمر الذي يجعله قادرا على الوصول إلى الحكم الصائب، ولهذا قال أتباعه أنه معصوم عن الخطأ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان حيا لما أصدر إلا هذا الذي يصدره المهدي[1]، وقد ذهب بعض المتطرفين إلى أن منشورات المهدي من كلام الله وأنها عمل مقدس[2]

وما هو مستند هذه الحجية؟ هو كونه "المهدي المنتظر" الذي يكون على يده إحياء الدين وإقامته على ما كان على عهد الرسول[3]

---

[1] انظر في هذا: الحسن سعد محمد العبادي (ت١٩٠٧ م): " الأنوار السنية الماحية لظلام المنكوبين على الحضرة المهدية" مطبعة المهدية ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م، ص ١٨، ٤٢، ٧٨، اسماعيل عبد القادر الكردفاني (ت ١٣١٦ هـ / ١٨٩٧ م): "سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي" تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل-بيروت، ط٢، ١٤٩٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ٨١-٨٢.

[2] ومن هؤلاء "الحسين إبراهيم زهرا "(ت١٨٩٤ م) الذي يقول في رسالته: "إن المهدي يعتبر معبر عما يلقيه الله إليه من كلام، فيستفاد من هذا أن جملة المنشورات الصادرة منه عليه السلام ترجمة عن كلام الله تعالى الذي يلقيه إليه في قلبه، وأن أرواح تلك المنشورات كلام الله تعالى، فيجب حينئذ وجوبا مؤكدا العمل بذلك وجعله في المرتبة العالية من الإعتبار له والإعتناء به ونقله وحفظه لما علمت أن روحه كلام الله تعالى"

(الحسين زهرا: "الآيات البينات في ظهور مهدي آخر الزمان وغاية الغايات" مطبعة المهدية، ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م، ص١٣-١٤.

[3] ولكن هذه الحجية خاصة به ولا يكون لغيره، وقد انتهت بوفاته، فماذا يكون الوضع؟

ولكن من الملاحظ، رغم أنه قد ألغى الطرق والمذاهب، أنه تـــأثر كثـــيرا بالمذهب الشافعي فى العبادات، وبالمذهب المـــالكي فى الأحكـــام،وبـــالحنبلي فى التوحيد المطلق والتشدد فى العقوبات ورفض كرامات الأولياء، ولقد أسعفته قبـــل كل هذا معرفته الواسعة بالفقه وتمكنه من القرآن والحديث، وعليه لا ينبغـــــي أن ننسى حقيقة أساسية كانت تفرض نفسها أبدا، وهى أن محمد أحمد كان ســـلفيا مغرقا فى السلفية، وأنه يرى فى مجتمع الرسول والراشدين المجتمع المثالي، وأن مـــا وقع فى حياة المسلمين ودفعهم إلى ما تردوا إليه من سوء، مرده الابتعاد عن ذلـــك المجتمع المثالي، وبالتالي فإن الهدف ينبغي أن يكون العودة إلى ذلك المجتمع والعيـــش كما عاش.

"النزعة السلفية" فى تصوف محمد أحمد:

يقصد بتسمية (السلفية والسلفيون) أولئك القوم الذين ظهروا فى القـــرن الرابع الهجري، وكانوا من الحنابلة الذين تقوم آراؤهم على مذهب الإمام أحمـــد بن حنبل الذي أحيا عقيدة السلف، وكان متشددا فى الالتزام بالنص الذي جاء به القرآن، ومما ورد صحيحا عن رسول الله صلى الله عليه وســـلم، وقـــد تجـــدد ظهورهم فى القرن السابع الهجري بقيادة شيخ الإسلام ابن تيمية(ت ٧٢٨ هـــ)، ثم بعثت هذه الحركة من جديد فى القرن الثامن عشر الهجري على يـــد الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦ هـــ) فى شبه الجزيرة العربية.

وقد رفض ابن تيمية المذاهب التي كانت موجودة فى عصره والتي حـــاول أصحابها فهم العقائد الإسلامية[1] لأن منهاج السلف ليس واحدا منها، بل هـــو

---

[1] لقد نظر ابن تيمية فوجد أن طرائق العلماء فى فهم العقائد الإسلامية تنقسم إلى أربعة أقسام:

غيرها، لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص، ولا تؤخذ أدلتها إلا من النصوص، وينتهي ابن تيمية إلى أنه لا سبيل لمعرفة العقيدة عند السلف، وكل ما يتصل بها إجمالا وتفصيلا واعتقادا واستدلالا إلا من القرآن والسنة[1]

وكانت أهم مسألة شغلته هي مسألة التوحيد، والوحدانية فى العبادة معناها ألا يتجه العبد فى العبادة إلى ماسوى الله، وذلك يقتضى أمرين: ألا يعبد إلا الله وحده وأن يعبده بما شرعه تعالى على لسان نبيه، وهذان هما حقيقة قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله[2]

وقد بين الله تعالى هذا التوحيد فى كتابه، وحسم مراد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق هذا التوحيد لأمته حين قال لهم:

---

* القسم الأول: الفلاسفة، وهؤلاء يقولون: أن القرآن جاء بالطريقة الخطابية والمقدمات الإقناعية التى تقنع الجمهور، ويدعون- فى رأيه- أنهم أهل البرهان واليقين، والعقائد طريقها البرهان واليقين.

* القسم الثانى: المتكلمون، وخاصة "المعتزلة" وهؤلاء يقدمون قضايا عقلية قبل النظر فى الآيات القرآنية، وهم يأخذون بالنوعية من الإستدلال، ولكن يقدمون النظر العقلى على الدليل القرآنى.

* القسم الثالث : طائفة من العلماء تنظر إلى ما فى القرآن من عقائد فتؤمن به، وبما فيه من أدلة، فتأخذه لا على أنه أدلة مادية مرشدة موجهة، بل على أنها آيات إخبارية يجب الإيمان بما اشتملت عليه من غير أن يتخذ مضمونها مقدمة للإستنباط العقلى.

* القسم الرابع: قسم يؤمن بالقرآن- عقائده وأدلته- ولكنه يستعين بالأدلة العقلية بجوار الأدلة القرآنية. (أنظر فى هذا الموضوع: محمد أبو زهره: تاريخ المذاهب الإسلامية، جـ١ ص ٢٢٦).

[1] محمد أبو زهرة: " تاريخ المذاهب الإسلامية"جـ١، ص ٢٢٧،

[2] ابن تيمية: "قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة" ط المكتب الإسلامى، ١٣٩٠ هـ ص ١٥٨.

" لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم مـــا شـــاء محمد، وقال لرجل قال له: ما شاء الله وشئت أجعلتني لله ندا؟ وقال: من حلـــف بغير الله فقد أشرك"[1].

ومادام الله سبحانه وهو المستحق للعبادة، وهو وحده المتفـــرد بالربوبيـــة، وهو وحده مالك الأمر فى الدنيا والآخرة، فإنه لا ينبغي لأحد أن يتوســـل إليـــه بغيره، أو يوسط بينه وبينه أحدا من خلقه، أو يستغيث بأحد من أنبيائه و أوليائـــه بعد موته، فمن أثبت وسائط بين الله وخلقه كالوسائط التي تكون بـــين الملـــوك والرعية فهو مشرك[2].

وهو تبارك وتعالي ليس له عون ولا ظهر من المخلوقين، فقطـــع ســـبحانه تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستغاثة[3]، كما أنه لا يجوز لأحـــد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين والميتين لأن ذلك كله شرك[4].

فشهادتنا "أن لا إله إلا الله" تقتضي ألا نعبد غيره، وشهادتنا " أن محمـــدا رسول الله" تقتضي أن مهمة الرسالة تبيان الطريقة المرضيـــة لله فى عبادتـــه، وأن الخروج عن هذه الطريقة يتنافى مع هذه الشهادة بل ينقضها[5] ولم يقف ابن تيمية عند هذا الحد، فقد دعا إلى فتح باب الاجتهاد، كما حارب الجمـــود والتقليـــد والتعصب.

---

[1] ابن تيمية " الواسطة بين الخلق والحق"، ط المكتبة العلمية، لا هور، ص ١٩

[2] نفس المصدر، ص ٢١.

[3] ابن تيمية: "قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة"،ص ١١١.

[4] نفسه، ص ١٥٤

[5] ابن تيمية: "العبودية"، ط المكتب الإسلامي، ١٣٩٢هـ، ص١٧٠.

وقد لقيت دعوة ابن تيمية خير تعبير عنها فى حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التى لم تكن فى جوهرها إلا إحياء لتعاليم ابن تيمية وصورة جديدة لأقواله وفكره[1]، وهي لم تزد بالنسبة للعقائد شيئا عما جاء به ابن تيمية، الا أنها تشددت فى أمور لم تكن شائعة فى عصره[2].

و لم تقتصر حركة ابن عبد الوهاب على الدعوة المجردة، بل عمدت إلى السيف لمحاربة المخالفين لها باعتبار أنها تحارب البدع فهي منكر تجب إزالته.

ومهما يكن قول المؤرخين والفقهاء فيها، فإنها فى الحق - وكما يقول إقبال[3] -كانت "أول نبضات الحياة فى الإسلام الحديث، ومصدر إلهام بصفة مباشرة، أو غير مباشرة لمعظم الحركات الإسلامية الكبرى فى آسيا وأفريقيا".

وأثرت دعوة ابن عبد الوهاب السلفية فى "مهدى السودان" عن طريق حركة الجهاد الفلانى التى قام بها الشيخ عثمان دان فوديو[4]

---

[1] راجع، محمد بن عبد الوهاب، القسم الأول من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، "العقيدة والآداب الإسلامية"، "الرسائل الشخصية" نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إقبال:"تجديد الفكر الديني فى الإسلام، ط القاهرة، ص ١٧٥.

[2] محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، جـ١، ص ٢٥٣.

[3] إقبال: "تجديد الفكر الديني في الإسلام"، ص ١٧٧.

[4] اسمه عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح، وعرف باسم دان فوديو، أى ابن الفقيه،ومن الألقاب التي تلقب بها نور الزمان، ومجدد الإسلام، والشيخ فى نيجيريا، ولد سنة ١١٦٩هـ، وفى سنة ١٢١٥هـ بدأ دعوته إلى الإصلاح، ومنهجه فيها العودة بالإسلام إلى ما كان عليه زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وأثمرت هذه الدعوة إنشاء إمبراطورية إسلامية فى أقاليم نيجيريا وما حولها من البلاد، وإتخذ لقب أمير المؤمنين، توفي سنة ١٢٣٠هـ، ١٨١٧م.

فى نيجريا [1]، و التي بشرت بقرب ظهور المهدي المنتظر بالمشرق، و أن أتباع الشيخ عثمان هم أبكار أتباع المهدي[2] وبين أيدينا كثرة من النصوص لمحمد أحمد تؤكد عمق هذا الأثر السلفي فى تصوفه.

يقول فى واحد من منشوراته:

"من العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى كافة أحبابه وأتباعه على سكة رسول الله، يا أحبابي: كل من نظر إلى شئ دون الله، وأثر فى قلبه أنه ينفع أو يضر فقد أشرك فى الحقيقة، إذ أن كل ما سوى الله باطل.

ومن كان يوحد الله، ويرجو لقاءه تعالى، لا يميل إلى شئ دون الله فيطمئن به، فيصرفه عن الله، ويكون ممن خسر دنياه وآخرته، لأن منفعة الغير التي يراها من غير حقيقة تصد قلبه عن التمسك بالله، فيتمسك بذلك الغير، فيكون مقطوعا عن الله، كمن اعتمد على شئ دون الله، وفرح به، فقد جهل، وكذلك من رجا شيئا من دون الله، ويعلم من ذلك أن من تفخر بشئ دون الله، فقد تفخر بالعدم وتمسكه بالغير يكون حجابا له عن الله، وكفرا بنعمته تعالى، لأن الله هو المحيي والرزاق والمغيث والمعز لا غيره عطاءا أو منعا أو نفعا أو

ضرا، فقد ظلم بوضع الشيء فى غير موضعه، ونسب نعمة لغير من أنعم بها"[3]

---

[1] محمد بلو بن عثمان بن فودى: "اتفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور "طبع دار الشعب، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م، ص ٥٨-٦٠، حسن أحمد محمود: "دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب أفريقيا"، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٤، ١٩٦٨ م،ص ٩٤

[2] محمد بلو عثمان بن فودى: "اتفاق الميسور"، ص ٦٥، منشورات المهدية، تحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم، دار الجيل بيروت لنبان، جـ١، ١٩٧٩م، ص ٣٣٦.

[3] منشورات المهدية، المنشور الصادر فى ٦ من صفر ١٣٠١ هـ.

وهل قال ابن تيمية وابن عبد الوهاب غير هذا؟ إن هذا المنشور تجسيد حي لأقوالهما فى التوحيد، وإفراد الله بالعبودية.

ويؤكد محمد أحمد ما ذهب إليه فى أنه لا سبيل إلى السلامة والنجاة عند الله إلا باتباع دينه، دين الإسلام الذي جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ونزل به القرآن العظيم من الملك العلام، و يبين أن سعى المرء ينبغي أن يكون للدين الخالص، وأن السعي لغيره فيه الخسران، وكيف أن التعلق بالجاه يعوق عن الدين ويبين سرعة زوال الدنيا، و جدوى العمل للآخرة، ففي رسالة وجهها إلى "العقلاء الكرام" يقول:[1]

"لا يخفى عزيز علمكم أن ما سوى الله هباء، وكل ما فى الدنيا زوال، وما للعبد إلا العمل الصالح الموافق للسنة، وما سوى ذلك معود للحسرة والندامة، وأنه لا سعادة للعبد إلا فى الدين الخالص الموافق للكتاب والسنة، فمن كان مهتما بإيمانه ودينه، شفيقا على أمر ربه أجاب الدعوة واجتمع معنا للمعاونة على تقويم الكتاب والسنة. ومن كان له جاه ورياسة وانقاد للحق وانخلع عن جاهه ورياسته لله وانقياده على الدين الخالص، عوضه الله خيرا منه. قال صلى الله عليه وسلم :"إنك لن تجد فقد شئ تركته لله" أي لم تجد له ألما ولا هما وقال تعالى: **{ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل عليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم}**[2]

وفي إنذاره الذي وجهه إلى خديوي مصر، يقول:

---

[1] الآثار الكاملة، جـ١، ص٨٩-٩٠ .

[2] سورة المائدة، الآيتين ٦٥،٦٦.

"لا يخفى على من نور الله بصيرته، وشرح صدره أن الدين الذي يكون التمسك به ناجيا عند الله هو دين الإسلام الذي جاءنا به نبينا محمد ونزل به القرآن من الملك العلام. قال تعالى: { **إن الدين عند الله الإسلام**}[1] وقال تعالى: { **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**}[2] وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو إليه الشيطان حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

ومن منحه الله عقلا يوازي به بين الخبيث والطيب، لا ينبغي له أن يصرفه إلا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزل الأقدام، ويشيب الطفل، ويشتد الزحام، وإلا كان أسوأ حالا من البهائم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه، ولا سبيل إلى السلامة عند الله إلا باتباع دينه، وإحياء سنة نبيه وأمته، وإماتة ما حدث من البدع والضلال، والإنابة إليه تعالى في كل الأحوال"[3].

ويؤكد على أنه يرغب في الله، وأنه يعمل لآخرته دون نظر إلى متاع الدنيا. "ولست في ذلك ب(محتال) ولا أريد ملكا ولا مالا ولا جاها، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين، وأكره الفخر وتفاخر السلاطين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين، وهذا هو الذي صدهم عن صلاحهم، وأخذ نصيبهم من ربهم، فأخذوا الفاني وتركوا الباقي، ولم يسمعوا قول الله ورسوله"[4].

ونجده يحث أتباعه على الاعتماد على الله تعالى دون الخلق، ويطلب منهم

---

[1] سورة آل عمران، الآية١٩.

[2] سورة آل عمران، الآية ٨٥ .

[3] منشورات المهدية، جـ ٢، ص ٢٧٧.

[4] نفسه، جـ٢، ص ٣١٩.

ألا يستعين أحد بمخلوق فى أداء حاجة لأن الله هو القائم بأمور خلقه وأنه تعالى هو المتكفل بهم، استمع إليه يقول:

"لا تستغيثوا بأحد دون الله، ولا تطلبوا أحدا دون الله ولو نبيا رسولا، أو ملكا. فجميع الأنبياء والمرسلين دعوا إلى وحدانية الله. فلا تتوهموا و تنسبوا إلى رجل صالح شيئا، أو تطلبوا منه شيئا، فإن ما سوى الله يقطع النظر عن الله تعالى قال تعالى:{**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو**}[1] وقال تعالى:{ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده**}[2] فلا تشركوا بالله شيئا، و راعوا حق الله فى حرمته"[3].

ونحن واجدون فى هذه الرسالة تجسيدا آخر لتعاليم ابن تيمية وابن عبد الوهاب فى منع الاستغاثة بغير الله، وألا ينسب أحد أو يتوهم أو يطلب من رجل صالح شيئا، واعتبار أي عمل من هذه الأعمال شركا ، فهذه الآراء والأحكام وحتى الألفاظ والعبارات واحدة عند كل من ابن تيمية وابن عبد الوهاب وعند محمد أحمد المهدى[4].

وجانب آخر يؤكد هذه النزعة السلفية في تصوف مهدى السودان، نجده فى تحذيره لأتباعه من الحلف بغير الله، لأن كل مؤمن مصدق بوحدانية الله لا يحلف بغيره، وفى هذا يقول:

---

[1] سورة يونس، الآية ١٠٧.

[2] سورة فاطر، الآية ٢

[3] منشورات المهدية، جـ١، ص ٤٦.

[4] راجع محمد بن عبد الوهاب، "كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد"، ص ٣٨ وما بعدها، وكتاب "ثلاث رسائل فى العقيدة الإسلامية" له أيضا ص ٤٠.

"اعلموا أن العظمة لله، وتقليل الحلف بالله خير، لأن من اعتاد ذلك يقع فى حلف بكذب، فيقع فى اليمين الغموس التي تقذف صاحبها في النار"[1].

وفى إحدى الغزوات، التقى محمد أحمد بشخص يسمى "عبد النبي" فغير اسمه إلى "عبد الباري"[2] وهى فكرة سلفية أخذ بها الوهابيون، فقد نص محمد بن عبد الوهاب على تحريم التسمية بالعبودية لغير الله، وتحريم كل اسم معبد لغير الله، لأن هذا من الشرك وان جاز فى تسمية لم تقصد حقيقتها[3].

وقد سئل محمد أحمد عن حكم الدين في التمائم التي تستعمل للاستعاذة من السقم والعين ونحوه، فقال:

"هذا ليس مذهبنا، وإنما مذهبنا التوكل على الله، حيث أنه النافع والضار، وناصية كل شئ بيده، بل لا يخرج عن قدرته فلتة خاطر، ولا لفتة ناظر، فينبغي لمن كان تابعا لنا أن يسلك طريقنا، ويتوكل على الله وحده، ولا يلتفت إلى غير لا وجود له"[4].

وفي ذلك يقول محمد بن عبد الوهاب[5]

" فى الصحيح عن أبي بشير الأنصاري أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره فأرسل رسولا ألا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر،

---

[1] منشورات المهدية: جـ ١، ص٤٦-٤٧.

[2] إسماعيل بن عبد القادر الكردفاني، "سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي" تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٩١.

[3] محمد بن عبد الوهاب، كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد، ص٩٩ وما بعدها.

[4] منشورات المهدية، المنشور الصادر فى رجب ١٣٠١ هـ

[5] كتاب التوحيد، ص ٢٧ ومابعدها.

وعن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله يقول: "أن الرقى، والتمـــائم والنولـــة شرك"[1]

ونمضى مع النصوص التي بين أيدينا لنرى إلى أي مدى كانت أقوال مهدى السودان مطابقة لسلفية ابن تيمية وابن عبد الوهاب، فقد رفض الرقص والغنـــاء، وقد كان خلافه مع شيخه محمد شريف بسبب ما رأى عنـــده منـــهما، وقـــال لأصحابه وهو يهم بالانصراف: " أنه لا ينبغي لأحد، وإن كان شيخ طريقـــة، أن يبيح الرقص والغناء[2] لأن هذا اتباع للهوى الذي نهى عنه الله، {**ومن أضل ممـــن اتبع هواه بغير هدى من الله**}[3]، ولهذا يميل هـــؤلاء، فى رأى ابـــن تيميـــة، ويغرمون بسماع الشعر والأصوات التي تهيج المحبة المطلقة من غير اعتبار لذلـــك بالكتاب والسنة، و ما كان عليه سلف الأمة، والمخالف لما بعث الله به رسوله لا يكون متبعا لدين شرعه الله أبدا[4]

فمحمد أحمد، بالرغم من نشأته الصوفية[5]، كان يحمل فى عقلـــه بـــذور السلفية، فلم يكن غريبا إذا أن يوجه إلى أتباعه رسالة يحثهم فيـــها علـــى

---

[1] التمائم، شئ يعلق على الأولاد من العين، والرقى : وهى التي تسمي العزائم، والنولة شئ يصنعونـــه ويزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها.

[2] نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان (بيروت-١٩٧٢ م) جـــ٣، ص ٦٤١ ومابعدها.

[3] سورة القصص، الآية ٥٠.

[4] ابن تيمية: "العبودية"، ص ٧١، محمد بن عبد الوهاب، مسائل الجاهلية، طـــ٢، المطبعة الســـلفية، ١٣٧٦ هـــ القاهرة، ص ١١٥.

[5] من المعروف عن الصوفية أنهم يبيحون السماع، ولا يرون فيه غضاضة على الإطلاق، وقد أفـــاض الغزالى (ت ٥٠٥ هـــ) فى شرح هذه القضية فى كتابه الإحياء حيث قال: " اعلم أن قول القـــائل السماع حرام معناه: أن الله تعالى يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقـــل، بـــل بالســـمع،

الارتقاء بأفكارهم وجوارحهم عن الملاهي الدنيوية، وأن يشغلوا أنفسهم بالذكر والتفكر فى الله تعالى أملا فى نعيم الآخرة، وينتهي إلى تحريم استعمال "المعازيف والدلاليك" وكل أدوات الطرب إلا فى استدعاء الجيش إلى الجهاد، وفى هذا يقول:

"امتنعوا عن الملاهي، فإن بذكر الله تطيب الدنيا لا بالملاهي والمعازيف والدلاليك[1] والنحاس لا يضرب إلا فى وقت الحاجة إليه فى استدعاء الجيش إلى الجهاد ولإسماع البعيد ليحضر"[2]

تعقيب

وبعد هذه القراءة فى وثائق محمد أحمد، مهدى السودان، وبيان تأثره بالنزعتين الشيعية والسلفية وجمعه الغريب بينهما فى تصوفه، لنا بعض الملاحظات:

أولا : هل كان محمد أحمد هو المهدي المنتظر حقا؟

ومعرفة الشرعيات محصورة فى النص أو القياس، وأعنى بالنص ما أظهره صلى الله عليه =

= وسلم بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله، فإن لم يكن فيه نص، ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه، وبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات (احياء علوم الدين، جـ٤، ص ١١٢٤ وما بعدها، ط الشعب- القاهرة) ويقول ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ): "وأما مذهبنا فيه، فإن الرجل المتمكن من نفسه لا يستدعيه، وإذا حضر لا يخرج بسببه، وهو عندنا مباح على الإطلاق، لأنه لم يثبت فى تحريمه شئ عن رسول الله (الفتوحات المكية، جـ٢، ص ٣٦٨)

[1] المعازيف، يقصد بها آلات العزف الموسيقية، والدلاليك، جمع دلوكة وهى الطبلة بلغة أهل السودان.

[2] منشورات المهدية، المنشور الصادر فى ١٧ من ذى الحجة ١٣٠٠ هـ، ص ٩٤١ وما بعدها.

إن "المهدي المنتظر" كما تصفه الأحاديث، يملأ الأرض عدلا، بعد أن ملئت جورا وظلما،ويولد من نسل فاطمة، من ولد الحسن أو الحسين، ويخرج وعلى رأسه ملك ينادى: إن هذا هو المهدي فاتبعوه، ويكون لمهديته آيتان لم يكونا منذ خلق الله السموات والأرض، يخسف القمر فى أول ليلة من رمضان، وتكسف الشمس فى النصف منه، مولده فى المدينة، ومهاجرته بيت المقدس، ويبايع بين الركن والمقام، وتفتح على يديه مدينة القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى[1]

هل تحقق شئ من ذلك؟ لنستمع أولا إلى ما يقوله محمد أحمد:

لقد ذكر فى حضرة من حضراته: أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من عزرائيل قائلا: من هذه الليلة اصحب المهدي لا تفارقه، وهذه الليلة المذكورة-التي حصلت فيها هذه الحضرة- غرة شعبان ١٢٩٨ هـ ليله الأربعاء ثم تلى لنا النبي، كما يقول محمد أحمد، جميع الأحوال إلى دخول مكة ومنازعة أهلها ومبايعة الضعفاء والغرباء أولا، ثم مبايعة الشريف ملك مكة وجميع أشرافها معه [2]

ويقول فى رسالته إلى خديوي مصر:[3]

---

[1] انظر فى هذا الموضوع:

* سنن ابن ماجة الحديث رقم ٤٠٨٢، ٤٠٨٣ جـ٢.
* سنن الترمذى الحديث رقم ٢٣٣٢ جـ٤.
* سنن أبي داود الحديث رقم ٤٢٨٤، ٤٢٨٤ جـ٤.
* سنن الإمام أحمد الحديث رقم ٧٧٣ جـ٢

[2] الآثار الكاملة، جـ٢، ص ٨١.

[3] منشورات المهدى،جـ٣،ص ٢٧٨-٢٧٩.

" وبشرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالنصر على من يعاديني، وبأن من يتصدني بعداوة يخذله الله فى الدارين، وقلدني سيف النصر، وأخبرني بأني أملك جميع الأرض" "و ها أنا قادم إليك بجنود الله عن قريب ولا بد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة"[1]

وقد ذكر فى رسالته إلى السنوسى:

"... ولا يزال التأييد يزداد من الله ورسوله، وأنت منا على بال، حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي أنك من الوزراء لي، ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي خلفاء أصحابه من أصحابي، فأجلس أحد أصحابي على كرسي أبى بكر، وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسى عثمان فقال: هذا الكرسى لابن السنوسى إلى أن يأتيكم بقرب أو طول، وأجلس أحد أصحابي على كرسي على رضوان الله عليهم أجمعين"[2]

وهو فى هذه الوثائق قد اعترف بأنه سيملك العالم، وأن ملك مكة وأشرافها سيبايعونه، وأنه سيزحف إلى مصر لإزالة الخديوي عن عرشه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأن السنوسى سيكون من وزرائه وخلفائه، وخطورة الأمر فى هذه القضية أن (محمد أحمد) ينسب أعماله وأقواله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهو لا يفعل شيئا إلا بأمره، ولا يصدر حكما إلا بإذنه، وقد كان أساس مهديته قائما على هذه الصلة، و لم تكن تنبؤاته إلا إخبارا انه سمعه من الرسول أو بلغه، فإذا ثبت بالواقع أن هذه التنبؤات لم تصدق، أصبح الشك فى أساس "مهديته" قائما والأساس الذي قامت عليه هذه المهدية منهارا.

---

[1] نفس المصدر، ص ٢٨٤.

منشورات المهدى، جـ٢، ص ٧١.

إن "المهدي" كما تقول الأحاديث والروايات، مولده فى المدينة، وقد ولد محمد أحمد فى إقليم دنقله بالسودان، والمهدي يظهر بعد خسوف القمر فى أول ليلة من رمضان، وبعد كسوف الشمس فى منتصفه، وقد أعلن محمد أحمد دعوته فى غرة شعبان،وجاء رمضان بعد ذلك من غير كسوف شمس و لا خسوف قمر، والمهدى مهاجرته بيت المقدس، ويظهر فى مكة عند صلاة العشاء، ويبايع بين الركن والمقام، ومحمد أحمد لم يرى مكة، والمهدى موعود بملك العالم، وقد أكد ذلك محمد أحمد نقلا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد مات وعاش داخل حدود وطنه.

" المهدي سيفتح القسطنطينية وغيرها من المدن، وقد توفى محمد أحمد قبل أن يحقق نبؤته بالزحف إلى القاهرة لخلع الخديوي توفيق"

ومحمد أحمد يقول: أن النبي أخبره بأن السنوسى من وزرائه وخليفة عثمان ابن عفان فى مملكته، وقد مات محمد أحمد دون أن يتحقق شئ من هذا كله ورفض السنوسى حتى الرد على رسائله.

محمد أحمد إذن لم يكن هو "المهدي المنتظر" الذي تحدثت عنه الكتب والراويات. "والمهدي" عند أهل السنة ليس شخصا معينا ولا معروفا. وقد كان محمد أحمد أو "المهدي" السوداني سنيا مالكيا. كما أن تصور محمد أحمد لمهديته ليس تصور مهدى الشيعة، أنه ليس الإمام الغائب الذي يعود، وإنما هو بشر عادى ولد فى السودان، ونشأ كغيره من الناس، ثم اختارته العناية الإلهية، كما يقول، لهذه المهمة على غير انتظار منه يقول:

"وحيث الأمر لله والمهدية المنتظرة أرادها الله واختيارها للعبد الفقير محمد أحمد بن السيد عبد الله، فيجب التسليم لأمر الله ورسوله"[1]

محمد أحمد إذن لم يكن هو بالمهدي المنتظر" فى التصوريـن " السـني، والشيعي."

ثانيا: أن محمد أحمد، مهدى السودان قد وقع باجتهاده فى أخطاء كثيرة خرجت به عن التعاليم الأصلية، أولها وأخطرها أنه حكم مبدئيا بتكفير من يخالفه فى شئ، فهو يكرر دائما أن من شك فى مهديته فقد كفر بالله ورسوله، وأن من أطاعه فقد غفر الله ذنبه، مع أن أركان الإيمان فى الإسلام، تلك التي إن أنكر الإنسان ركنا منها يعد كافرا، ليس فيها الإيمان بالمهدي أو المهدية، وتتساءل هل يجوز لمحمد أحمد تكفير المخالفين له وحل دمهم مع أنهم يؤدون أركان الإسلام الخمسة، وهل يحق لفرد مهما كان مقامه، أن يكون حكما فى معتقدات الناس وأن يدخلهم فى الإسلام أو يخرجهم حسب مقاييسه الخاصة؟!

والأخطر من هذا، أنه ينسب هذا الحكم للرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول :"وقد أخبرني سيد الوجود بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله، وكررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات"[2]

ومما زعمه-خطأ- على لسان الرسول، قوله فى حضرة تغيير اسمه من محمد أحمد بن عبد الله إلى محمد المهدي ابن عبد الله، وأن هذا بأمر النبي وأسوة به، "حصلت أوامر من النبي بتغيير أسمى بمحمد المهدي فانه صلى الله عليه وسلم قال فى بعض

---

[1] الآثار الكاملة، المجلد الأول، ص ٩٦.

[2] الآثار الكاملة، المجلد الأول، ص ١٣٧.

حضراته: إني كنت اسمي محمد، فلما بلغت الرسالة والنبوة سميت رسول الله ونبي الله، كذلك أنت كنت تسمى محمد أحمد فلما حصلت لك المهدية يقال لك محمد المهدي"[1]

وهذا كذب على رسول الله، وهو أفحش ألوان الكذب وقد قال (صلى الله عليه وسلم):

" لا تكذبوا على فانه من يكذب على يلج النار"

وفى رواية

"من تعمد على كذبا فليتبوأ مقعده من النار".

وفى رواية

"أن كذبا على ليس ككذب على أحد، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"[2]

ومن أخطائه التي وقع فيها باجتهاده محاولته بث العادات الاجتماعية الحميدة عن طريق الوعظ والقدوة والإجراءات القانونية، والإجراء الأخير هو نقمة كثير من الأنظمة التي ترى أن الممارسات الاجتماعية يمكن ازالتها بالقمع، وترى أن مشكلة المجتمع فى فساده، وأن هذا الفساد يمكن أن يجتث بالسيف ليصلح أمر الرعية، من أمثلة ذلك أنه يرى أن من يشرب التنباك (فليؤدب حتى يموت أو

---

[1] الآثار الكاملة، المجلد الأول، ص ٢٢١.

[2] صحيح مسلم بشرح النووى، المجلد الأول، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ص ٦٥، بدون تاريخ.

يتوب) (ومن قال لأخيه يا كلب أو يا خنزير فيضرب ثمانين سوطا، ويحبس سبعة أيام)، وهو يرى أيضا أن الزوج الذي يتخلف عن المهدية فالزواج باطل، والمرأة التي ينضم زوجها إلى أعدائه فلا عدة عليها[1] وكان صارما فى حجر النساء وحجابهن فمنع النساء من الخروج إلى السوق والطرقات، ومن تخرج بعد ثلاثة أيام من التنبيه تجلد مائة جلدة، والمرأة التي تقف كاشفة الرأس أو تتحدث بصوت عال تجلد سبعة وعشرين جلدة[2]، وحرم سلام النساء على الرجال[3]، وحرم حتى خروج بنت الخامسة على أن يقوم "أهلها بسترها فان أهملوا يعاقبوا بالجلد"[4]

ثالثا: يقوم النظام السياسي عند محمد أحمد، على فكرة : "المهدي المنتظر" فالمهدي هو إمام القرن وخليفة رسول الله، يظهر ليجدد الإسلام، ويرفع المذاهب والطرق ويعود إلى الأصل، إلى الكتاب والسنة، ولهذا أعلن محمد أحمد إلغاء المذاهب والطرق، وأمر بإحراق كل الكتب إلا الكتاب الكريم والحديث الصحيح. وبعض كتبه لأنه- في زعمه- يحمل مؤهلا لم يحمله أحد من المسلمين وهو التلقي المباشر من الرسول صلى الله عليه وسلم، والإلهام الذي يجعله يصل إلى الحكم الذي يصل إليه الرسول لو كان فى مكانه.

ورفضه للتراث يقوم، فى رأيه، باعتبار أن التراث باعد بين الناس وبين الدين الحق لأن العلماء انشغلوا بالقشور وتركوا اللباب وانساقوا مع الحكام

---

(1) المرشد إلى الوثائق المهدى، وضع محمد إبراهيم أبو سليم، الخرطوم، ١٩٦٧، ص ١٨٥، ١٩٩.

(2) المرشد، ص ١٩٧.

(3) نفسه، ص ٢٩٨.

(4) نفسه، ص ٣٠٢.

وارتضوا بما أتوه من المظالم، ووافقوهم على العمل بالقوانين الوضعيـــة وتعطيـــل أحكام القرآن.

ولكن، هل يحق لمحمد أحمد، أن يشرع بمعزل عن المتون والشروح والمذاهب والتراث الذي خلقة المسلمون، وهل من حقه أن يلغى المذاهب وأن يبطل الطرق الصوفية؟!

المهم هذا هو الأساس النظري الذي قام عليه نظام الحكم فى المهدية، وهـو الأساس الذي نادى به معظم دعاة التجديد فى العالم الإسلامي، فكلهم يزعمـون العودة إلى الأصول، إذ بغير هذا الزعم لا يصبح لتجديدهم معنى، ولكن العـــودة إلى الأصول ليست ممكنة فى كل عصر، وإحراق محمد أحمد المهدي الســـوداني للكتب كان خطوة غير موفقة، فهو فى أحكامه اللاحقة قال ببعض مما جـــاء فى تلك الكتب من أحكام مما يجعل حرقها خطوة لا تخلو من تطرف، لأنه لا يطيـــق رؤية الفكر المخالف، وتجدر الإشارة إلى أن إلغاء محمد أحمد المذاهب لم يقـــابل بمعارضة ولا بحجج لأن السودان لم يعرف الخصومة بين المذاهـــب وصراعاتهـــا، وكان غالب أهل السودان، وما يزالون، من أهل السنة على المذهـــب المـــالكي، وقليل منهم كانوا شافعية، أما إلغاء الطرق الصوفية فهو الذي أدى إلى التوتـــر، فمحمد أحمد "وقد ظهر فى مجتمع تسيطر عليه الطرق الصوفية، وتستحوذ علـــى القدر الأكبر من نشاطه الفكري، وهو نفسه نشأ فى هذا الجو وصار من أخلـــص مريدي إحدى الطرق وهى الطريقة السمانية، وفضلا عن ذلك فإنه قرأ فى أدبيات التصوف وتشرب بها[1]

---

[1] الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية فى المهدية، ط٣، ص ١٦٤-١٦٥.

رابعا : ليس هناك، من الناحية النظرية، حد فاصل، عند محمد أحمد بين الدين والدولة، بل من الواضح أن الدين عنده هو كل شئ، وهو يجعل فى شموله التام لكل شئ، النظم السياسية والإدارية مجرد أدوات يباشر بها عمله، ولهذا نجده يرفض أن يكون نظامه نظام دولة بمعزل عن الدين، وقد وصف محمد أحمد دعوته بأنها (أمر الهي) بمعنى أن الله تبارك وتعالى هو الموجه لها، وأنها (أمر ديني) يقوم بالنصرة الدينية التي عن طريقها قصد حياة المجموعات البشرية، الأمر الذي يدل على أن المجتمع من عمل الإنسان بحيث يصلح أمره إذا اتبع الناس الأوامر الإلهية وتندك أركانه و تسوء حالته إذا تخلوا عن تلك الأوامر واتجهت الأنفس إلى المنافع الشخصية والمنازعات الدنيوية دون الأخروية.

ويتخذ، مهدى السودان التقشف والزهد أساسا لفلسفته الاجتماعية ويجعلها محور المجتمع الذي ينادي به، وأعتقد أن فيهما العلاج الناجح لمشكلات العالم، والحالة التي تردى إليها العالم الإسلامي، ذلك لأنه يرى أن الإنسان ينبغي أن يترفع عن الفوائد المادية المباشرة لما هو أقيم له فى رحاب الفضائل والقيم الدينية.

وقد كانت المهمة الرئيسية له هي خلق مجتمع إسلامي سليم، وهو فى نظره على نمط مجتمع الرسول وعهد الخلفاء الراشدين، وقد ألزم نفسه بأن يقفو أثر الرسول، وأن يعيد سيرته الأولى، ورغم أن محمد أحمد قد نفذ في قوة ووعي تعاليم السلفية، نراه قد أرسي فيما أرسى الخرافة، منها رده على من سأله عن كراماته:

".. وقلتم اطلبوا من الله إظهار كرامة تدل على مهديتكم فاعلموا أننا لا نطلب ذلك، فالآيات لا تنفع المنكر الجاحد، وإظهارها إنما يكون بإرادة الله

تعالى، لا بتمني العباد، وليس علينا إلا التبليغ والإنذار كما قال تعالى: { **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه أية من ربه إنما أنت منذر**}[1] وقال تعالى :{**قل إنما الآيات عند الله**}[2]، {**وما علينا إلا البلاغ المبين**}[3] فكذلك نحن ليس علينا إلا التبليغ و لا نطلب من الله إظهار آية على مهديتنا، بل نقف معه على حد أدبنا وعبوديتنا، فإن شاء أظهر آية كما ظهر لكثير من المؤمنين المحبين نقش اسمنا على بيض الدجاج و ورق الأشجار حتى صار لهم ذلك سببا فى اليقين"[4].

خامسا : ونحن نسعى إلى صياغة فلسفة إسلامية جديدة، ألا يدخل فى هذا الطموح أن يكون الصوفي المسلم إيجابيا، معنيا بشئون دينه ومجتمعه، على أساس أن التصوف الحق، وكما يقول أستاذنا الدكتور أبو الوفا التفتازاني[5]، ليس هروبا من واقع الحياة، وإنما هو محاولة من الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها، فالتصوف يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية، يأخذ منها الإنسان كفايته ولا يخضع لعبودية حب المال والجاه، ولا يستعلي بهما على الآخرين، وبهذا يتحرر تماما من شهواته وأهوائه، وبإرادة حرة، وبهذا المفهوم يصبح التصوف إيجابيا لا سلبيا، ما دام يربط بين حياة الإنسان ومجتمعه.

---

(1) الرعد: آية ٧.

(2) الأنعام: آية ١٠٩.

(3) الحق محمد أحمد الآية بما قبلها، ولذلك لا يستقيم أوفا مع الآية وهي {فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين} المائدة: آية ٩٢.

(4) الآثار الكاملة: المجلد الأول، ص ١٢٦.

(5) الدكتور أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي ط٣، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩١ م، ص،ج من التقديم.

ونحن واجدون هذه الإيجابية، التي نطمح إليه ، في أكثر من جانب في تصوف محمد أحمد السوداني:

أ- فهو يطلب من أتباعه أن يتركوا الملاهي الدنيوية، وأن يقبلوا على الذكر والأعمال التي تؤدي بهم إلى نعيم الآخرة مبينا لهم مزايا ذكر الله تعالى والتفكر في قدرته عز وعلا، وسرعة زوال الدنيا، وكيف أن متاعبها امتحان للسعداء وتصفية لهم وأنها ترفع مكانتهم فى الآخرة، ويطلب منهم أن يرغبوا فى الله، وأن يعملوا لآخرهم دون نظر إلى متاع الدنيا، وفى هذا يقول:

"أحبابي، يا أنصار الدين، قال الله تعالى: {**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض**}[1] ولا ريب أن كلا منكم يحب أن يكون من أولي الألباب الذين أثنى الله عليهم بهذا الثناء الجميل، وما يتمنى أحد أن يكون بليدا ذاهب العقل[2]

والدنيا معروفة الفناء قريبة الانقضاء، وكل من التفت إلى شئ منها فإنما التفت إلى نقصانه أو هلاكه، فلا تشتغلوا إلا بما يقربكم إلى الله، فإن أيام العمر هي أيام الزاد، فمن غفل فيها خسر الدنيا، فإنها ليست بدار، وهى زمن الاكتساب للقاء الله في دار المآب، فلتكن همتكم، أحبابي مراعاة سكة النبي صلى الله عليه وسلم، فمن سلكها فلا بد أن يصل إليه فيوصله إلى السعادة

---

[1] آل عمران: ١٩٠-١٩١.

[2] الآثار الكاملة، المجلد الأول، ص ٣٩٧.

الكبرى، ومن سلك غيرها من السكك هلك و لم ينفعه ما تمسك به[1]

وهو يقول أيضا:

"وكلما ينقص العبد من الدنيا وينال التعب فيها يزيد به عند الله تعالى، لأن العبد إذا لم تكن له همة عالية فى اكتساب ما عند الله يبتليه الله فى الدنيا لينال الدرجة العليا التي يبلغها بعمله وهمته، وإذا كانت له همة لما عند الله يبتليه الله للزيادة"[2]

ب- وكان التمسك بالقرآن والسنة يقترن عنده بالاجتهاد فى فهم النصوص فهما يراعي حاجات المجتمع والمشاكل التي تواجه الناس ليكون التشريع نابعا منها وحلا عادلا لها، فنجده يخصص حيزا كبيرا من منشوراته لإعلان التشريعات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة، فكانت قراراته بتأميم كل المواضع ذات النفع العام وضمها لبيت المال، ويقرر أن منتوج الأرض يكون للذي قام بالزراعة وليس لصاحب الأرض ضريبة يأخذها منه وأن ممتلكات وأموال بيت المال تكون للجميع حسب الاحتياج.

ويضع تعليماته حول آداب التجارة والمعاملات العامة قائلا:

---

[1] الآثار الكاملة، ص ٣٩٩، ولعلنا نجد الصلة واضحة بين محمد أحمد فى عبارته هذه، وعبارة الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) التي يشير فيها إلى منهجه فى التصوف، وهو منهج يستند إلى الكتاب والسنة بشكل ظاهر: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من إقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه "طبقات السلمي، ص ١٥٩، نقلا عن الدكتور أبو الوفا التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ط ٣، ص ١١٣.

[2] الآثار الكاملة، المجلد الأول، ص ٤١٣-٤١٤.

"يجب على كل من بلغه هذا المنشور ودرى ما فيه أن لا يفتري علـــى الله كذا، ولا يغشى أحد ولا يمكر ولا يخادع ولا ينقض عهدا ولا يحلف يمينا فـــاجرة ولا يبخس ميزانا أو مكيالا ولا يطففه، وأن يتخذ بين ذلك سبيلا، ويلزم الصدق في أخذه وعطائه وبيعه وشرائه وجميع معاملاته دون خيانة وغدر"[1]

جـــ- وهو يبحث على الشفقة علي العباد، ذاكـــرا ارتبـــاط المســـلمين ووحـــدتهم، ويمنع سل السيوف وهز السلاح وركوب الخيل في أماكن السكن، فلا يصح أن يحمل أحد سيفه مباهيا مغرورا بقوته أو داعيا إلى إخافـــة غـــيره مـــن المسلمين وغير المسلمين، فالسيف، وهو رمز للقوة والبطش، يجب ألا يستخدم إلا في مقتضاه الحقيقي وهو الجهاد في سبيل الله، وفي هذا يقول مخاطبا أتباعه:

"أحبابي، لا يخفى أن الإيمان يقتضي الاتصال وحسن الأفعال، والمؤمنـــون أولياء بعضهم بعضا، وما دام الله تعالى يخبر عن المؤمنين بأنهم أوليـــاء بعضـــهم بعضا، والذي لا ينطق عن الهوى يخبر بأن المؤمنين كالجسد الواحد، فمن كـــان مؤمنا بالله ويصدق برسالة رسول الله فليشفق على المؤمنين كشفقته على نفســـه، ومن جملة الشفقة على المسلمين أن لا تسل سيفك بينهم، خوف أذية أحد بـــلا عناية، ولا تهز سلاحك على أحد أبدا لئلا يخرج السلاح عن اليد بالغفلة أو ينصل فيضر مؤمنا، ولا يكون سل السيوف إلا في مقتضاه ومحله وهو الجهاد في ســـبيل الله، وليحذر أصحاب الخيول من اقتحام الأخوان المؤمنين وإضرارهم في ذلـــك، وعلى قدر ما يمكنكم أنصفوا المؤمنين وأزيلوا عنهم جميع الضرر"[2].

---

[1] راجع الآثار الكاملة، جـ١، ص ٤٠٨، ٤١٠، ٤٣٢، ٤٤٧.

[2] نفس المصدر، جـ١، ص٤٠١-٤٠٢.

د- وتصوف محمد أحمد، معتدل حين يستند فيه إلى الكتاب والسنة وعباراته التالية تؤكد هذا المعنى:

يقول: "لا يخفى على من نور الله بصيرته، وشرح صدره، أن الدين الذي يكون المتمسك به ناجيا عند الله هو دين الإسلام الذي جاءنا به نبينا محمد ونزل به القرآن من الملك العلام، وما سوى ذلك من الأديان فضلال يدعو إليه الشيطان حزبه ليكونوا من أصحاب السعير"[1]

وهو يقول أيضا:

"كل من نظر إلى شئ دون الله، وأثر في قلبه أنه ينفع أو يضر فقد أشرك فى الحقيقة إذ أن كل ما سوى الله باطل. فمن نسب إلى غيره عطاءا أو منعا أو نفعا أو ضرا، فقد ظلم بوضع الشيء فى غير موضعه، ونسب نعمة لغير من أنعم بها"[2]

وأستمع إليه أيضا يقول:

"مذهبنا التوكل على الله، حيث أنه النافع والضار وناصية كل شئ بيده، بل لا يخرج عن قدرته فلتة خاطر ولا لفتة ناظر"[3]

هذا، وقد تمثلت فى حركته كل حركات الإصلاح فى عصره، وفى مقدمتها حركة محمد بن عبد الوهاب الذي أخذ منه دعوته إلى العقيدة الصحيحة، والعودة إلى الكتاب والسنة، والتوجه إلى الله تعالى وحده بالدعاء والعبادة.

---

[1] منشورات المهدية، جـ٢، ص ٢٧٧، ٣١٩.

[2] نفس المصدر، المنشور الصادر فى ٦ من صفر ١٣٠١ هـ.

[3] منشورات المهدية، المنشور الصادر فى رجب ١٣٠١ هـ.

ويكفى محمد أحمد السوداني قيمة أنه فجر فى السودان أكبر ثـــورة إســـلامية فى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادى، فقد استطاع، وهو الصـــوفى البسيط، أن يحرز انتصارات عديدة توجها بفتح الخرطوم.

لقد مزج محمد أحمد بين الدين والحياة مزجا رائعا، فالإسلام هو الـــذى قـــاوم، والإسلام هو الذى جاهد، والإسلام هو الذى انتصر فى النهاية.

مراجع الدراسة

(١) المراجع العربية

١- ابراهيم فوزى:

السودان بين يدى غوردون وكتشنر، القاهرة، ١٣١٩ هـ.

٢- ابن تيمية:

أ -قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة، طـ١ المكتب الإسلامى، ١٣٩٠ هـ.

٢-الواسطة بين الخلق والحق، طـ١ المكتبة العلمية، لاهور-بدون.

٣- العبودية، طـ المكتب الإسلامى، ١٣٩٢ هـ.

٣-ابن خلدون، عبد الرحمن:

المقدمة، بيروت ١٩٦٧م.

٤-ابن عربى، محيى الدين:

الفتوحات المكية، جـ٣، دار صادر- بيروت-بدون.

٥-أبو الوفا الغنيمى التفتازانى (الدكتور):

علم الكلام وبعض مشكلاته، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م.

٦-أبو الوفا الغنيمى التفتازانى (الدكتور):

مدخل إلى التصوف الإسلامى، طـ٣، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩١م.

٧-أحمد أمين:

ظهر الإسلام، جـ٤، الطبعة الخامسة، سنة ١٣٨٨ هـ.

٨- اسماعيل عبد القادر الكردفانى:

سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدى، تحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم، دار الجيل، بيروت ١٩٧٣م.

٩- الحسن سعد محمد العبادى:

الأنوار السنية الماحية لظلام المنكرين على الحضرة المهدية، مطبعة المهدية، ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م.

١٠- حسن أحمد محمود (الدكتور):

دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب افريقيا، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٤، سنة ١٩٦٨م.

١١- الحسين ابراهيم زهرا:

الآيات البينات فى ظهور مهدى آخر الزمان وغاية الغابات، مطبعة المهدية ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧م.

١٢- حسين مؤنس (الدكتور):

وثائق عن مهدى السودان، حوليات كلية الآداب (ابراهيم باشا)، المجلد الثانى، العدد الثانى.

١٣- الشاطر بصيلى عبد الجليل:

معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى، القاهرة ١٩٥٥م.

١٤- الشهرستانى:

الملل والنحل، تحقيق سيد كيلانى، جـ١، القاهرة، ١٩٦١ م.

١٥- عبد المحمود نور الدائم:

أزاهير الرياض، طـ٣، مكتبة القاهرة، ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣م.

١٦- عز الدين الأمين:

قرية كترانج وأثرها العلمى فى السودان، الخرطوم، ١٩٧٥م.

١٧- الغزالى (أبو حامد):

إحياء علوم الدين، جـ٤،طـ الشعب، القاهرة-بدون.

١٨- محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور):

١-تحقيق مخطوط توشكى (النجومى)، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة الخرطوم ١٩٦٦م.

٢-الحركة الفكرية فى المهدية، دار الجيل بيروت، طـ٢، ١٩٨١م.

٣-المرشد إلى وثائق المهدى، جامعة الخرطوم، ١٩٦٩م.

١٩- محمد ابراهيم أبو سليم (الدكتور):

المصادر الأولية لفترة المهدية، المؤتمر الثانى، شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، السابع إلى الثامن عشر، ديسمبر ١٩٧٠م.

٢٠- محمد أحمد بن عبد الله (المهدى السودانى):

١-منشورات المهدى، تحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم، بيروت، ١٩٦٩م.

٢-الآثار الكاملة، جمع وتحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٩٠م.

٢١- محمد إقبال (الدكتور):

تجديد الفكر الدينى فى الإسلام، القاهرة، ١٩٥٥م.

٢٢- محمد بلو بن عثمان بن فودى:

اتفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور، طبع دار الشعب، القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤ م.

٢٣- **محمد بن عبد المجيد بن محمد السراج:**

شقائق النعمان فى حياة المهدى، ووقـــائع الســـودان، القـــاهرة، ســـنة ١٣٦٦هـــ.

٢٤- **محمد بن عبد الوهاب:**

القسم الأول من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب "العقيدة والآداب الإسلامية"،و"القسم الخامس- الرسائل الشخصية" نشر جامعة الإمـــام محمد بن سعود الإسلامية-بدون.

٢٥- **محمد حسين آل كاشف الغطاء:**

أهل الشيعة وأصولها، القاهرة ١٩٥٨م.طـــ ١٠.

٢٦- **محمد سعيد القدال (الدكتور):**

الإمام المهدى، جامعة الخرطوم، ١٩٨٥م.

٢٧- **محمد فؤاد شكرى (الدكتور):**

السنوسية دين ودولة، القاهرة، ١٩٤٨م.

٢٨- **مكى شبيكة (الدكتور):**

السودان عبر القرون، بيروت، ١٩٦٥م.

٢٩- **نعوم شقير:**

تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، جـــ٣، القاهرة ١٩٠٣م.

المراجع الأجنبية

30- Holt, P.M., Amodern History of the Sudan from the Funj Sultante to th present day, London, 1961.

31- Slatin, R.C. (Von): Fire and Sword in the Sudan, tr, by F.R Wingate, London, 1859.

32- Theoblod, A.b. : The Mahdism And the Angle-Egyptian, Sudan, London 1968.

33- Wingate , F.R.: Mahdism And the Angle- Egyptain, Sudan, London, 1968.